كليــة اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلميــة

"الجملـة التعليليـة فـي النظـم القرآنـي: خصائصهـا وأغراضهـا البلاغيـة"

إعداد

د/ عبـد الخالـق محمـد السيـد التلـب
الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية بالقاهرة
جامعة الأزهر الشريف

(الـعـدد الواحد والأربعون)
(الإصـدار الأول.. أبـريل)
الجزء الأول
(١٤٤٣هـ / ٢٠٢٢م)

الجملة التعليلية في النظم القرآني: خصائصها وأغراضها البلاغية

عبد الخالق محمد السيد التلب

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، القاهرة، مصر.

البريد: aeltilb@gmail.com

الملخص:

يقوم البحث على استجلاء خصائص الجملة التعليلية في النظم القرآني سواء كانت خصائص سياقية أم كانت خصائص ذاتية، وكذلك يقوم على بيان أهم الأغراض البلاغية التي سيق من أجلها التعليل في القرآن الكريم، ذلك لأن التعليل من الأساليب التي ظهرت بقوة كبيرة في النظم القرآني، ومع هذا الحضور الكبير فإنه لم يأت على صورة واحدة في بيان الأسباب وذكر العلل، فنراه يأتي مفصلا ومجملا، وموجزا ومطنبا، ومفردا وجملة؛ حتى لا تسأم النفوس أو تمل الأسماع، فاختصت هذه الدراسة بإحدى صور التعليل الواردة في النظم الكريم، ذلك لأن التعليل بالجملة له مزيد خصوصية ودقة مسلك؛ إذ التعليل بالجملة لا يُدرك إلا من خلال موقعها من النظم، ومحلها من السياق، والجملة معه عمدة في الكلام مستقلة بذاتها في البيان، أما التعليل بغير الجملة –بالمفرد أو ما هو في حكم المفرد– فهو قيد في جملة، ومتعلق بها، كما أن ألفاظه في النظم مذكورة، تنص عليه وترشد إليه، ولما كان الأمر كذلك قمت باستقراء مواقع الجملة التعليلية في النظم القرآني لرصد خصائصها الذاتية والسياقية، وكذلك رصد أهم الأغراض البلاغية للجملة التعليلية من خلال الوقوف على المقامات وتتبع السياقات، وكانت من جملة النتائج التي ذكرتها أن الجملة التعليلية لها دور محوري في تقرير الأحكام وتبيان علة التوجيهات؛ لأنها بمثابة البرهان المقترن بالقضية، والدليل الملازم للدعوى، وأن أبرز الخصائص الذاتية للجملة التعليلية تتمثل في كونها خبرية غير إنشائية، وكونها مؤكَّدة، وكونها معلومة مقررة، وكونها مفصولة غير موصولة، وأن أبرز

خصائصها السياقية أنها عادة ما تأتي عقب أمر، أو نهي، أو استفهام، أو تمنٍ، أو جواب يفيد الردع والزجر، أو أخبار عظيمة وعجيبة؛ تأتي لتبين علة الطلب والتوجيه، وسببية الحكم والإرشاد، ولتؤكد معنى الردع والزجر، ولتزيل موطن العجب والاستغراب، كما تأتي لأغراض بلاغية أخرى ذكرتها محللة في الدراسة، تم استنباطها من خلال تتبع المقامات ورصد السياقات.

الكلمات الافتتاحية: الجملة التعليلية، الخصائص، الأغراض البلاغية، أسلوب التعليل، النظم القرآني.

(Explanatory sentence in the Qur'an systems, its characteristics and its rhetorical purposes)

Abdel Khalek Mohammed Al-Sayid Al-Telb
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Arabic Language, Al-Azhar University, Cairo, Egypt.

Email: *aeltilb@gmail.com*

Abstract:

The research is based on elucidating the characteristics of Explanatory sentence in the Qur'an systems. These characteristics are whether they are contextual characteristics or subjective ones.
This research is also based on clarifying the most important rhetoric purposes for which the explanation was given in the Holy Qur'an.
That is because the reasoning is one of the methods that were revealed strongly in the Qur'an systems. Hereby it is not found in one style to show reasons and mentioning the causes, so we see it detailed, overall, brief, wordy, separate and sentence; so that souls do not tired or bored of hearing. This study is for one of the reasoning forms that are found in the Qur'an systems. That is because the reasoning in the sentence has more properties and accuracy of the course. The reasoning in the sentence is not declared except through its place in the system and the context. The sentence with it is a pillar in the speech, independent of itself in the statement. But the reason or the explanation without the sentence, separate or something like that, it is in a sentence and related with it. Also its words are in the systems refer to it and guide it. Hereon, I tried to show the place of explanatory sentence in the Quran regulations to decide its self attributes and context. Also the important rhetoric purposes concerning the sentence. That through showing tones and follow the context, the results mentioned in the Explanatory sentence has a pivotal role in deciding judgment and declaring the reason for the directives. That is because it is like the evidence or proof associated with the case, and the evidence accompanying the claim.

One of the most subjective characteristics of the explanatory sentence is confirmed, known, decided and separated not connected. One of Its contextual characteristics is usually comes after an order, prohibition, question, a wish, or answer refer to prevention or restraint, good news. That is to show the reason of the request, guidance, and the cause of judgment and guidance, to confirm the meaning of prevention and restraint, to eliminate wondering and astonishing or comes for other rhetorical purposes mentioned them in detail through the study and known through the context.

Keywords

The Explanatory Sentence , The Characteristics , The Rhetoric Purposes , The Methods Of Explanatory , The Qur'an Systems

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، ثم أما بعد،

فإن القرآن الكريم منبع الفصاحة ومعدن البلاغة، الذي أعجز نظمه أساطين الكلام، وأدهش ألباب أصحاب البيان، وأخرس ذوي الفصاحة واللسان، وهو ما يزال يزخر بكثير من الأساليب، التي لم يُكشف بعدُ عن أسرارها البلاغية، ولم يُوقف بعدُ على خصائصها الأسلوبية، ولم تُبح بعدُ عن نكاتها البيانية، ومن تلكم الأساليب التي لم يتناولها الدرس البلاغي في النظم القرآني أسلوب التعليل.

إن التعليل من الأساليب التي ظهرت بقوة كبيرة في النظم القرآني؛ ذلك لأن القرآن الكريم يخاطب من الإنسان كلَّ شيء فيه، وأهم شيء يخاطبه في الإنسان هو عقله ولبه، العقل الذي يعقل به الأمور ويميز بينها، واللب الذي صفا من الشوائب والشبهات فخلص للإدراك والعلم، ومن شأن العقل أن يأنس لذكر العلل والأسباب، ومن عادة اللب أن يطلب لنفسه الدليل والبرهان، ولذلك نجد كثيرا ما يحضر التعليل في النظم القرآني عقب أوامر منوعة، ونواه متعددة، وتوجيهات كثيرة، وأخبار عظيمة؛ ليقرر به حقيقة الحكم، وليبين به علة التوجيه، وليزيل به موطن التعجب والاستغراب، فيكون بمثابة البرهان المصاحب للقضية، والدليل المقترن بالدعوى؛ فيدفع المتلقي إلى القبول والاطمئنان، ولا يتوقف المخاطَبُ في الإقرار والإذعان.

ومع هذا الحضور الكبير لأسلوب التعليل في النظم القرآني فإنه لم يأت على صورة واحدة في بيان الأسباب وذكر العلل، فنراه يأتي مفصلا ومجملا، وموجزا ومطنبا، ومفردا وجملة؛ حتى لا تسأم النفوس أو تمل الأسماع، ومع ذلك لم يحظ بعدُ – فيما أحسب– بدراسة بلاغية متخصصة تكشف عن مزاياه، وتسبر أغواره، وتوضح خصائصه وأغراضه، وتبين مقاماته وسياقاته، وإن كثرت حوله الدراسات

النحوية[١] والتفسيرية[٢]، ومن هنا تظهر أهمية الموضوع، تظهر الحاجة إلى استقصائه واستقرائه وتحليله في عدد من الدراسات البلاغية؛ لكي تكشف لنا بعضا من أسراره، وتجلي لنا شيئا من خباياه.

فرغبت في فتح الباب لتلك الدراسات بدراسة تخص الجملة التعليلية، وهي إحدى صور التعليل الواردة في النظم القرآني، ذلك لأن التعليل بالجملة له مزيد خصوصية ودقة مسلك؛ إذ التعليل بالجملة لا يُدرك إلا من خلال موقعها من النظم، ومحلها من السياق، والجملة معه عمدة في الكلام مستقلة بذاتها في البيان، أما التعليل بغير الجملة – بالمفرد أو ما هو في حكم المفرد– فهو قيد في جملة سابقة، ومتعلق بها، كما أن ألفاظه في النظم مذكورة، تنص عليه وترشد إليه، بوجود حروفه ك (لام) التعليل وغيرها من الحروف التي تدل على التعليل، فالتعليل مع هذه الحروف من باب التعليل بالمفرد، وأما التعليل الذي هو في حكم

(١) منها: التعليل في القرآن الكريم دراسة نحوية للباحث: سعيد محمد القرني، رسالة دكتوراه في النحو والصرف، جامعة أم القرى عام١٤٢٠هـ، آيات التعليل في القرآن الكريم للباحث: محمد هلال برجس، رسالة دكتوراه في اللغة العربية، كلية التربية، جامعة الموصل، العراق، عام٢٠٠٤م، أساليب التعليل ودلالاتها في القرآن الكريم، للباحثين: أصيل محمد كاظم، محمود اللامي، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العدد ٢، المجلد ٤، عام٢٠٠٥م. الأشكال التعليلية وأثرها في دلالة الخطاب القرآني للباحثة: بوهنوش فاطمة، بحث منشور في مجلة دراسات معاصرة، المجلد الثاني، العدد الثاني، عام٢٠١٨م.

(٢) منها: التعليل في القرآن الكريم دراسة وتفسيرا للباحث: محمد سالم محمد، سلسلة دراسات قرآنية، جامعة الأزهر، عام ١٩٩٥م، تدبر أسلوب التعليل القرآني وأثره على النص، للباحثين: رضوان الأطرش، ونجوى شكوكاني، بحث منشور في مجلة الجامعة للدراسات الإسلامية، ماليزيا، عام٢٠١٧م، ولهما أيضا: التعليل القرآني إعجاز وإنجاز دراسة تحليلية، بحث في كلية أصول الدين، جامعة غزة الإسلامية عام١٤٤٠هـ.

(١) ينظر مقاييس اللغة: مادة (ع، ل، ل) ٤/٢٠٦.

(٢) لسان العرب: مادة (ع، ل، ل) ١١/٤١٧، وما بعدها.

المفرد فهو التعليل بـ (أنّ) المفتوحة الهمزة، فإنها وما دخلت عليه في تأويل مصدر، كما هو معلوم مقرر.

فلما كان الأمر كذلك آثرت أن يُفرد بحث للجملة يكشف عن خصائصها ويوضح أغراضها، فكان تحت عنوان: الجملة التعليلية في النظم القرآني: خصائصها وأغراضها البلاغية، أهدف من ورائه رصد خصائص الجملة التعليلية في النظم القرآني والوقوف عليها، سواء كانت هذه الخصائص لها في ذاتها، أو كانت خصائص تتعلق بها في سياقها، من خلال استقراء مواضعها وتتبع مقاماتها، كما أهدف أيضا من وراء البحث رصد أهم الأغراض البلاغية التي سيقت من أجلها الجملة التعليلية في النظم القرآني.

وقد اعتمدت المنهج الوصفي مستخدما فيه أداتي الاستقصاء والاستقراء للوقوف على الخصائص، والمنهج التحليلي للوقوف على الأغراض البلاغية المقصودة، والمعاني الدلالية المفهومة من خلال النظر في المقام وتتبع السياق.

واقتضت هذه الدراسة أن تقوم على خطة مكونة من:

مقدمة: فيها التعريف بالموضوع وأهميته وسبب اختياره، وأهدافه، والمنهج المتبع في دراسته، وخطته.

تمهيد: وفيه تأصيل لمفهوم التعليل عند النحاة والأصوليين والبلاغيين.

المبحث الأول: خصائص الجملة التعليلية.

المبحث الثاني: أغراض الجملة التعليلية.

ثم خاتمة مدون فيها أهم النتائج والتوصيات، يتبعها ثبت المصادر والمراجع، بعده فهرس الموضوعات، هذا والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

تأصيل لمفهوم التعليل عند النحاة والأصوليين والبلاغيين

(أ) مفهوم التعليل لغة واصطلاحا.

مادة (ع، ل، ل) تدور حول أصول ثلاثة، الأول: التكرر أو التكرير ومنه العَلَل، وهو الشربة الثانية، والثاني: العائِقُ يُعوِّق، ومنه قول الخليل (ت١٧٠هـ): العِلّة حدث يشغل صاحبه عن وجهه، والثالث: العِلّة بمعنى المرض، وصاحبها يقال له: معتل(١).

وجاء في لسان العرب: "علل: العَلُّ والعَلَلُ: الشَّرْبةُ الثَّانِيَةُ، وَقِيلَ: الشُّرْب بَعْدَ الشُّرْبِ تِباعاً، يُقَالُ: عَلَلٌ بَعْدَ نَهَلٍ. وعَلَّه يَعُلُّه ويَعِلُّه إِذا سَقَاهُ السَّقْيَة الثَّانِيَةَ، وعَلَّ بِنَفْسِهِ، يَتعدَّى وَلَا يتعدَّى. وعَلَّ يَعِلُّ ويَعُلُّ عَلًّا وعَلَلًا، وعَلَّتِ الإِبِلُ تَعِلُّ وتَعُلُّ إِذا شَرِبت الشَّرْبةَ الثَّانِيَةَ. ابْنُ الأَعرابي (ت٢٣١هـ): عَلَّ الرَّجلُ يَعِلُّ مِنَ الْمَرَضِ، وعَلَّ يَعِلُّ ويَعُلُّ مِنْ عَلَل الشَّراب...والتَّعْلِيل سَقْيٌ بَعْدَ سَقْيٍ، وجَنْيُ الثَّمرة مَرَّةً بَعْدَ أُخرى... وتَعَلَّلَ بالأَمر واعْتَلَّ: تَشاغَل...وعَلَّلَه بِطَعَامٍ وَحَدِيثٍ وَنَحْوِهِمَا: شَغَلَهُ بِهِمَا"(٢).

ولعل أقرب المعاني اللغوية في (ع، ل، ل) إلى معنى التعليل الاصطلاحي، كما سيذكر، هو المعنى الأول – فيما أحسب– الذي منه العَلَل وهو تكرير الشربة بعد الشربة، فعلّه سقاه مرة بعد مرة؛ لأن التعليل فيه تأكيد للمعنى وبيان للعلة، فكأنه بذلك إعادة للمعنى وتكرير للغرض.

وأما التعليل عند أهل الاصطلاح فهو: "تقرير ثبوت المؤَثِّر لإثبات الأثر....وقيل: هو إثبات علّية الشيء"(٣)، والعلة: هي ما يتوقف عليه وجود الشيء، ويكون خارجًا مؤثرًا فيه(٤).

---

(١) ينظر مقاييس اللغة: مادة (ع، ل، ل) ١٢/٤.

(٢) لسان العرب: مادة (ع، ل، ل) ٤٦٧/١١، وما بعدها.

(٣) التعريفات: ٦١.

(٤) السابق: ١٥٤.

هذا وقد فرّق الزمخشري (ت٥٣٨هـ) بين العلة والغرض قائلا: "ولا يجب في العلة أن تكون غرضا، ألا ترى إلى قولك: خرجت من البلد لمخافة الشر، فقد جعلت المخافة علة لخروجك، وما هي بغرضك"(١).

وذكر السيوطي (ت٩١١هـ) أن التعليل معناه: "تبين علية الشيء الذي يطلب إثباته أو نفيه؛ لينتقل الذهن من العلم بها إلى العلم بالمعلوم"(٢).

فالتعليل هو تبيين الغرض من إيقاع الفعل أو بيان سبب وقوعه، والسبب هو الشيء المؤثر في إيجاد الفعل، والتعليل نوعان: الأول تعليل بالغرض، وهو الأمر المراد تحقيقه والباعث على إيقاع الفعل، وفي تلك الحال يكون الغرض متقدما في التصور الذهني متأخرا في الوقوع الخارجي، والثاني: تعليل بالسبب وهو أن يعلل الفعل بذكر المؤثر والمسبِّب له، وفي تلك الحال يكون الفعل واقعا، ويكون مجيء التعليل لذكر سبب الوقوع وعلته والحكم به.

ومعلوم أن الجملة في بناء النظم كمثل الكلمة في بناء الجملة، فكما أن ضم كلمة إلى أخرى يشكل بناء الجملة ويؤسس لمعنى، فكذلك نَسْقُ جُمَلٍ على نهج معين يشكل بناء النظم ويؤسس لمعانٍ، يتم بمجموعها تحقيق الغرض الرئيس من الكلام.

وعليه فنستطيع القول بأن المقصود بالجملة التعليلية في النظم القرآني هي: الجملة المستأنفة المؤكَّدة الثابتة المعنى التي تأتي بعقب كلام سابق لبيان علته ولتقرير معناه حثا على تحقيق الغرض من الكلام.

(ب) التعليل عند النحاة والأصوليين.

حظي التعليل في النحو العربي بكثير من الدراسات التي تناولته بالعرض والتحليل والمناقشة؛ ذلك لأن التعليل يعد أصلا من أصول التنظير في النحو العربي،

(١) الكشاف: ٤/٦٥٢.

(٢) معجم مقاليد العلوم: ٧٨.

وقد اعتمده النحاة في كثير من القضايا التي تفسر الظواهر اللغوية، والمسائل التي يضبط بها الاستدلال في معظم الخلافات النحوية، و"يراد بالعلة النحوية تفسير الظاهرة اللغوية، والنفوذ إلى ما وراءها، وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه، وكثيرا ما يتجاوز الأمر الحقائق اللغوية ويصل إلى المحاكمة الذهنية الصِّرْف"(١).

ولعل الخليل بن أحمد (ت١٧٠هـ) كان من أوائل اللغويين والنحاة الذين نبهوا إلى دور العلة في التقعيد ومعرفة كلام العرب، فقد نُقل عنه أنه: "سئل عن العلل التي يُعتل بها في النحو، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته منه، فإن أكن أصبت العلة، فهو الذي التمست، وإن تكن هناك علة له، فمثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيها بالخبر الصادق، أو بالبراهين الواضحة والحجج اللائحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعلة كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا... فإن سَنَحَ لغيري علة لما عللته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول، فليأت بها"(٢).

وظهر مصطلح العلل في مؤلفات النحويين أيضا، فنجد من ذلك (الإيضاح في علل النحو) لأبي القاسم الزجاجي (ت٣٣٧هـ) الذي قسم العلل النحوية إلى ثلاثة أضرب: علل تعليمية، وعلل قياسية، وعلل جدلية نظرية، ويقصد بالعلل التعليمية: ما يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب، ويقصد بالعلل القياسية: ربط الظواهر اللغوية

(١) أصول النحو: ١٠٨.

(٢) الإيضاح في علل النحو: ٦٥، ٦٦.

المختلفة؛ رغبة في اطراد الأحكام، ويقصد بالعلل الجدلية: التبرير المنطقي للعلتين السابقتين(١).

إذن لمصطلح التعليل حضوره عند النحاة من خلال تعليل الظواهر اللغوية ومن خلال الأقيسة النحوية التي عللوا بها اطراد القواعد والأحكام، وكذلك أيضا حضر المصطلح في عناوين المؤلفات عندهم، مما يدل على عنايتهم بهذا الأصل في التقعيد والضبط.

وأما التعليل عند الأصوليين فمن أهم المباحث التي تناولوها في كتبهم، وخصوها بمزيد عنايتهم، ولذا تعددت آراؤهم في تحديد المقصود بالعلة، فمذهب الجمهور أن العلة هي: "أمارة على وجود الحكم إن وجدت وجد الحكم، وإن انتفت انتفى، وهذا معنى قولهم: الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا"(٢)، وقيل هي: المعنى الجالب للحكم، أو المعنى الذي تعلق به الحكم، أو الصفة المقتضية للحكم"(٣).

وعليه فإن العلة عندهم تدور على ثلاثة معان، الأول: ما أوجب حكما شرعيا، والثاني: المعنى الطالب للحكم، وهو علة القياس، والثالث: هي حكمة الحكم(٤).

وللعلة عندهم " أسماء تختلف باختلاف الاصطلاحات، فيقال لها: السبب، والأمارة، والداعِي، والْمُسْتدعِي، والباعِثُ، والحامِل، والمناط، وَالدليل، وَالْمُقْتَضِي، والْمُوجب، والمُؤَثِّر"(٥).

---

(١) ينظر الإيضاح في علل النحو: ٦٤، ٦٥، ولمزيد من تأصيل هذه القضية عند النحاة ينظر النحو العربي العلة النحوية نشأتها وتطورها للدكتور: مازن المبارك، وينظر نظرية التعليل في النحو العربي للباحث: حسن خميس الملخ، أسلوب التعليل في اللغة العربية للباحث: أحمد خضير عباس، وينظر أثر العلل النحوية في المسائل الخلافية للباحث: صدام الرفوع.

(٢) روضة الناظر: ٢/٢٦٠.

(٣) العدة في أصول الفقه: ١/١٧٥، ١٧٦.

(٤) ينظر تعليل الأحكام: ١٨.

(٥) إرشاد الفحول: ٢/١١٠.

وخلاصة ذلك أن التعليل عند الأصوليين يدور حول تبيين علة الحكم الشرعي وكيفية استنباطها واستخراجها بالاجتهاد[١].

(ت) التعليل عند البلاغيين.

تناولت مدرسة التقعيد البلاغي مصطلح "حسن التعليل" عند دراستهم لألوان البديع المعنوي، فنجد الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) يقول: "ومنه حسن التعليل، وهو أن يدعى لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي، وهو أربعة أقسام: لأن الوصف إما ثابت قصد بيان علته، أو غير ثابت أريد إثباته، والأول إما ألا يظهر له في العادة علة، أو يظهر له علة غير المذكورة، والثاني إما ممكن أو غير ممكن"[٢].

ولعل أول من أطلق هذا المصطلح أعني "حسن التعليل" هو الرازي (ت٦٠٦هـ) إذ يقول: "حسن التعليل هو أن يُذكر وصفان أحدهما لعلة الآخر، ويكون الغرض ذكرهما جميعا"[٣].

وكلامهم هذا كله أصله من كلام الشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) عن مصطلح "التخييل" حين فرّق بين نوعين من المعاني، المعاني العقلية والمعاني التخييلية، وجعل المعاني التخييلية تقوم على أمرين عُرِفا فيما بعد باسم: التشبيه الضمني، وحسن التعليل؛ إذ يقول عنها: "وأما القسم التخييلي، فهو الذي لا يمكن أن يقال: إنه صِدقٌ، وإنَّ ما أثبتَه ثابت، وما نفاه منفيّ، وهو مفتنٌّ المذاهب، كثير المسالك، لا يكاد يُحصَر إلاّ تقريباً، ولا يُحاط به تقسيماً وتبويباً، ثم إنه يجيء طبقاتٍ، ويأتي على درجاتٍ، فمنه ما يجيء مصنوعاً قد تُلُطِّف فيه، واستعين عليه

(١) ينظر تعليل الأحكام: ١٢.

(٢) الإيضاح مع البغية: ٤/٤٤.

(٣) نهاية الإيجاز: ١٨٠.

بالرِفق والحِذق، حتى أُعطَي شَبَهاً من الحقّ، وغُشِّي رَوْنَقاً من الصّدق، باحتجاج تُمُحِّل، وقياسٍ تُصُنِّع فيه، وتُعُمِّلَ"(١).

ثم يزيد المعني التخييلي توضيحا بقوله: "ما يثبت فيه الشاعر أمرا هو غير ثابت أصلا، ويدعي دعوى لا طريق إلى تحصيلها، ويقول قولا يخدع فيه نفسه، ويريها ما لا ترى"(٢).

وهذا المعنى لحسن التعليل لا يتصل بما نحن فيه من معنى التعليل بالجملة الوارد في النظم القرآني، فإن ما ذكره البلاغيون من قَبْلُ يدخل ضمن ألوان البديع، وأما ما نحن فيه من أمر التعليل فإنه مما يتصل بمباحث علم المعاني، الذي نجد إشارة له في كلام عبد القاهر (ت٤٧١هـ) عندما عرض لمعاني (إنّ) ومواقعها في الكلام، وكذا إذا وقعت موقع الفاء في الربط بين الجمل(٣)، وهو ما أثبته المتأخرون من البلاغيين فيما بعد في باب الفصل والوصل في مبحث شبه كمال الاتصال(٤).

ولعل أول من أشار إلى التعليل المقصود هو ابن أبي الأصبع (ت٦٥٤هـ) بقوله: "التعليل: هو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول، كقوله سبحانه: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة الأنفال) فسبق الكتاب من الله علة في النجاة من العذاب"(٥).

وكذلك عندما بيَّنَ علّةَ الفصل بين البيتين في قول الشاعر: (من بحر الخفيف)

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يجتمعان

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٦٧.

(٢) السابق: ٢٧٥.

(٣) ينظر دلائل الإعجاز: ٣١٥، وما بعدها.

(٤) ينظر الإيضاح مع البغية: ٦٨/٢.

(٥) تحرير التحبير: ٣٠٩.

هي شامية إذا ما استقلت وسهيل إذا استقل يمان[١].

قائلا: "وأما البيت الثاني فإنه أبدع من البيت الأول؛ إذ أخرجه مخرج التعليل، للإنكار الذي وقع في عجز البيت الأول"[٢]. فكانت الجملة: هي شامية...، تعليلا للإنكار المفهوم من الاستفهام في قوله: كيف يجتمعان؟!

وهو أيضا ما ذكره العلوي (ت٧٤٥هـ) في سبب الفصل بين الجمل في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سورة الأعراف) حيث جاءت جملة: إنه لا يحب المسرفين، بغير واو؛ لأنها تعليل لما قبلها[٣]، وكذلك أيضا أشار إلى قيمة التعليل حين ذكر أنه من صنْفِ التنبيه في الكلام الذي تطلقه، ثم تردفه بما يؤكده ويقرر معناه[٤].

وعليه فالتعليل الذي هو محل الدراسة يعد من باب الإطناب عند البلاغيين، وهو ما نص عليه السيوطي (ت٩١١هـ) إذ جعله من أنواع الإطناب، قائلا: " النوع الحادي والعشرون: التعليل وفائدته التقرير والأبلغية، فإنَّ النُّفوس أبعث على قبول الأحكام الْمُعَلَّلة من غيرها، وغالب التعليل في القرآن على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى"[٥].

وفيما يأتي عرض لخصائص الجملة التعليلية مع ذكر الشواهد الكاشفة عن تلك الخصائص من النظم القرآني، ثم بيان لأهم الأغراض البلاغية التي سيقت من أجلها من خلال استقراء مواضعها وسياقاتها، والاستشهاد بالآيات الموضِحة لتلك الأغراض وتحليلها.

---

(١) البيتان لعمر بن أبي ربيعة في ديوانه: ٣٩٧.

(٢) تحرير التحبير: ٢٦٩.

(٣) ينظر الطراز: ١٧٥/٣.

(٤) ينظر السابق: ٤٩/٣، ٧٦.

(٥) الإتقان: ٢٥٥/٣.

المبحث الأول: خصائص الجملة التعليلية.

للجملة التعليلية في النظم القرآني عدة خصائص تتضح من خلال استقرائها وتتبع ورودها في القرآن الكريم، وتتنوع تلك الخصائص من حيث تعلقها بالجملة التعليلية، فهي خصائص لها في ذاتها، وخصائص لها في مقامها وسياقها، وتفصيلها كالآتي:

أولا: الخصائص السياقية للجملة التعليلية.

إن الذي ينعم النظر في السياق القرآني يجد عادة ما تأتي الجملة التعليلية فيه عقب الأوامر والنواهي، والتوجيهات والأحكام، والأخبار العظيمة والعجيبة، فتكون عادة مسبوقة بأمر أو نهي، أو استفهام، أو تمنٍ، أو ردع وزجر، أو خبر عظيم عجيب؛ لتبين علة التوجيه، ولتقرر سببية الحكم، ولتؤكد معنى الزجر والردع، ولتزيل موطن التعجب والاستغراب، ولتؤنس النفوس بإزالة ما يعرض لها من إبهام، وبإثبات جواب ما يعتريها من استفهام، ولا شك أن الشواهد في أغلب المواضع كثيرة ومتعددة، وكان استخلاص تلك الخصائص من الاستقراء الكامل –فيما أحسب– لتلك الشواهد، غير أني سأكتفي – مخافة الإطالة– بشاهد واحد في كل موضع من مواضع الاستدلال، إلا أن يقتضي الاستدلال ذكر أكثر من شاهد لبيان الغرض، فأذكر ما يفي بذلك، على أنني سأشير في نهاية كل استشهاد إلى مواضع أخرى من الشواهد في النظم القرآني لمن أراد الاستزادة.

كثيرا ما نجد الجملة التعليلية تأتي بعد الأمر لتوضح سببية الأمر، ولتغري بالامتثال والفعل، سواء أكان أمرا صريحا، وهو جد كثير، أو كان خبرا في معنى الأمر، وهو دون الأول ورودا.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ (سورة الزخرف) فقد جاء قوله تعالى: (إنك على صراط مستقيم) تعليلا للأمر الذي سبقه في قوله تعالى: (فاستمسك بالذي أوحي إليك) والمراد من

الأمر المداومة على الاستمساك والثبات عليه؛ لأنه ﷺ متلبس به فعلا، لا ينفك منه أبدا، وقد نصّ البقاعي (ت٨٨٥هـ) على التعليل في الآية وسبب مجيئه قائلًا: "ولما كان المقام لكثرة المخالف محتاجاً إلى تأكيد يطيب خواطر الأتباع، ويحملهم على حسن الاتباع، علّل ذلك بقوله: {إنك على صراط} أي طريق واسع واضح جداً: {مستقيم} موصل إلى المقصود لا يصح أصلاً أن يلحقه شيء من عوج، فإذا فعلت ذلك لم يضرك شيء من نقمتهم"(١)، فجعل التعليل تأكيدا يطيب به الخاطر، ويحمل على حسن الاتباع والملازمة(٢).

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾(سورة البقرة) فالخبر في قوله تعالى: (يرضعن أولادهن حولين) في معنى الأمر، أي ليرضعن،(٣) وإنما جاء الطلب بصيغة الخبر: "للإشارة إلى أن ذلك الوجوب تنادي به الفطرة، ويتفق مع طبيعة الأمومة، وأن الأمهات يلبين الطلب فيه بداع من نفوسهن؛ فلذلك عبر بالخبر، كأنّ الإرضاع وقع من غير طلب خارجي،

(١) نظم الدرر: ٤٣٥/١٧.

(٢) ولمزيد من الشواهد ينظر الآيات: من سورة البقرة : ١٩٥، ١٩٩، سورة المائدة :٨، ١٣، سورة التوبة : ١٠٣، سورة الحج: ١، سورة الدخان: ٢٣، ٢٤، سورة النصر: ٣.

(٣) ينظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١٨٧/٥، وينظر مفاتيح الغيب: ٤٥٩/٦، وينظر تفسير الجلالين: ٥٠/١.

فكان ذلك التعبير مفيدًا للأمر التكليفي، ومقررًا للأمر الفطري"[1]. وجاءت جملة: لا تكلف نفس إلا وسعها، وجملة: لا تضار والدة بولدها، تعليلا للأحكام السابقة ومن جملتها الأمر؛ لتحرض على الامتثال وترغب في الفعل[2].

كما أنها تأتي بعد صيغة الأمر الذي يقصد به الدعاء، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾(سورة البقرة) فإن جملة: (إنك أنت التواب الرحيم) تعليل للدعاء في قوله: (وتب علينا) وفيها إظهار الخضوع والخشوع لله عز وجل، وهذا ما ذكره البقاعي (ت٨٨٥هـ) بقوله: "{وتب علينا} إنباء بمطلب التوبة أثر الحسنة كما هو مطلب العارفين بالله المتصلين بالحسنات رجّعا بها إلى من له الخلق والأمر، ثم علل طمعه في ذلك بأن عادته تعالى التطول والفضل فقال: {إنك أنت التواب} أي الرّجاع بعباده إلى موطن النجاة"[3].

هذا والأصل أن تكون الجملة التعليلية تالية للأمر، وتأتي بعقبه؛ لأن رتبتها بعد الطلب لتقرره ولتؤكده ولتبين العلة من ورائه، ولكني باستقراء النظم القرآني وجدت جملا تقع موقع التعليل تأتي أولا، ويأتي الأمر مبنيا عليها ثانيا، متفرعا عنها بفاء التفريع، وفي تلك الحال تكون العلة بمثابة السبب المؤثر في طلب الفعل، وفي توجيه الحكم، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ

(١) زهرة التفاسير: ٨٠٥/٢.

(٢) نظم الدرر: ١٦٠/٢، ومن الشواهد في ذلك أيضا سورة: آل عمران: ٨، ٣٥، ٣٨، وسورة ص: ٣٥.

(٣) ينظر أنوار التنزيل: ١٤٤/١، وينظر إرشاد العقل السليم: ٢٣٠/١، وينظر التحرير والتنوير: ٤٣٢/٢، ومن الشواهد في ذلك أيضا: سورة البقرة: ١١٤.

قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٤﴾ ﴾ (سورة المنافقون) فإن الإخبار في قوله تعالى: (هم العدو) تفرع عنه الأمر في قوله: (فاحذرهم) فكانت بمثابة التعليل للأمر؛ وكأن التقدير: إذا عرفت صفتهم وأحوالهم فاحذرهم، فإن الأمر بالحذر منهم مسبب عن كون عداوتهم ظاهرة بينة لا يشك فيها شاك ولا ينكرها أحد، ولذلك جاءت الجملة بتعريف الطرفين (هم العدو) ليفيد التعريف في الخبر – هاهنا– معنى الكمال في الصفة، كما نبّه إلى مثل ذلك عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في إحدى دلالات تعريف الخبر بالألف واللام[١]، والذي يؤكد أن الجملة واقعة موقع التعليل ما نصّ عليه الألوسي (ت١٢٧٠هـ) إذ يقول: "وقوله تعالى: هُمُ الْعَدُوُّ، استئناف أي: هم الكاملون في العداوة والراسخون فيها، فإن أعدى الأعادي العدو المداجي الذي يكاشرك[٢] وتحت ضلوعه الداء الدوي، ككثير من أبناء الزمان، فاحذرهم؛ لكونهم أعدى الأعادي، ولا تغترّنّ بظاهرهم"[٣]، فقوله: لكونهم أعدى الأعادي، صريح في معنى بيان علة الأمر بالحذر من هؤلاء المنافقين؛ لأن ترتب الأمر على الإخبار يشعر بعليته له.

ومن شواهد ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ﴾ (آل عمران) فذكر ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) أن جملة (إن الله ربي وربكم) تعليل فرّع عليه قوله: (فاعبدوه) بفاء التفريع[٤].

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز: ١٨١.

(٢) الكَشْرُ: بدو الأسنان عند التبسم. ويقال في غير ضحك، كَشَرَ عن أسنانه إذا أبداها. قال المتلمس:

إن شر الناس من يَكْشِرُ لي... حين ألقاه وإن غبت شتم (معجم العين: ٢٩١/٥).

(٣) روح المعاني: ٣٠٦/١٤.

(٤) ينظر التحرير والتنوير: ٢٥٤/٣، ومن الشواهد أيضا: سورة الأنبياء: ٩٢، سورة المؤمنون: ٥٢.

ومن خصائصها السياقية أيضا أنها تأتي بعد النهي لتبين علة النهي والسبب من وراء الأمر بالترك سواء أكان نهيا صريحا أم ضمنيا، فمن الأول، وهو جد كثير، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾(سورة الإسراء) فجملة (إنه كان فاحشة وساء سبيلا) تعليل وبيان لسبب النهي في قوله تعالى: (ولا تقربوا الزنا) وقد أُكِّد هذا النهي بعدة توكيدات منها تسلط النهي على مادة القرب (ولا تقربوا) لأن نفي مقاربة الفعل آكد من نفي الفعل نفسه؛ لأنه يشمل النهي عن الفعل وعن مقاربة أسبابه ودواعيه، ثم كان التأكيد أيضا بذكر علة النهي بكونه فاحشة وساء سبيلا، وكونُه فاحشةً إشارةٌ إلى اشتماله على فساد الأنساب الموجب للخراب، وكونُه ساء سبيلا إشارةٌ إلى أنه لا يُبقي فرقا بين الإنسان والبهائم في عدم اختصاص الذكران بالإناث[1]، وكلا الوصفين يستدعي معنى التنفير والتقبيح، فتسارع النفوس إلى الإذعان بالاجتناب والامتثال بالترك؛ رضا بحكمة التشريع[2].

ومن الثاني، وهو مجيء الجملة التعليلية بعد النهي الضمني، قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (سورة التوبة) فالإخبار في قوله تعالى: (لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا) مضمن معنى النهي، وقد جاءت الجملة بصيغة الخبر، وهي في معنى الإنشاء؛ لإفادة معنى المبالغة، وقوله: إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، تعليل لنهيهم[3].

(١) ينظر مفاتيح الغيب: ٣٣١/٢٠.

(٢) ومن الشواهد أيضا: سورة الإسراء: ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٣، ٣٦، ٣٧.

(٣) ينظر أنوار التنزيل: ٩٢/٣.

وإنما كان مجيء النهي في صورة الخبر أبلغ في معنى النهي؛ لأن فيه حملا للمخاطب على تحقيق الترك وتحصيله، ودعوة له إلى سرعة الامتثال والاستجابة، فكأنّ المنهي عنه سُورِعَ إليه فصار في حيز التنفيذ، وفي طور التحقيق(١).

كما أنها تأتي بعد صيغة النهي المقصود بها الدعاء مثل قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ١٩٤﴾ (سورة آل عمران) فإن جملة: (إنك لا تخلف الميعاد) تعليل للدعاء في قوله (ولا تخزنا يوم القيامة) لإظهار الضراعة والخشوع، يقول أبو السعود (ت٩٨٢هـ) في تفسيره: "{وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ القيامة} قصَدوا بذلك تذكيرَ وعدِه تعالى بقوله يَوْمٌ لاَّ يخزِى الله النَّبي والَّذِينَ آمنُوا مَعَهُ مُظْهرين أنهم ممن آمن معه رجاءً للانتظام في سلكهم يومئذ وقولُه تعالى:{إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الميعاد} تعليلٌ لتحقيق ما نَظَموا في سلك الدعاءِ وهذه الدعواتُ وما في تضاعيفها من كمالِ الضراعة"(٢).

ومن الخصائص السياقية للجملة التعليلية أنها تقع بعد الاستفهام إذا أريد به الإنكار، فكثيرا ما تأتي الجملة التعليلية بعد الاستفهام الإنكاري لتبين علّية الإنكار وسببية التوبيخ أو التكذيب، فمن شواهدها بعد الاستفهام الإنكاري التوبيخي ما حكاه القرآن الكريم عن قوم شعيب عليه السلام، وهو قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ (سورة هود) فإن الاستفهام في قوله تعالى: (أصلاتك تأمرك) إنكاري توبيخي بمعنى لا ينبغي أن تأمرك صلاتك بهذا، معللين ذلك بقولهم: إنك لأنت الحليم الرشيد؛ فقيل: إن قولهم هذا "على جهة

(١) ومن الشواهد أيضا: سورة الروم: ٣٠، سورة الواقعة: ٧٩، ٨٠.

(٢) تفسير أبي السعود: ١٣٢/٢، ولم أجد غير هذا الشاهد في النظم القرآني.

الحقيقة، وأنه اعتقادهم فيه، فكأنهم فنَّدوه، أي: إنك حليم رشيد، فلا ينبغي لك أن تأمرنا بهذه الأوامر"[1]، وهذا المعنى أيضا ذكره البيضاوي (ت٦٨٥هـ) فقال: "عللوا إنكار ما سمعوا منه واستبعاده بأنه موسوم بالحلم والرشد المانعين عن المبادرة إلى أمثال ذلك"[2]، وعليه فهو من باب الخبر المراد به لازم الفائدة؛ ليعلموه أنهم يعلمون من حاله الحلم والرشد الذي يعلمه هو من نفسه إن كان يجهل علمهم بهذا، فالجملة مبناها على التعليل من هذا الوجه.

ولكن السياق يرجح أنهم قالوا ذلك على جهة الإخبار إفادة لمعنى الاستهزاء والسخرية، وليس على جهة التعليل، "فإنهم أعداء الله، قالوا ذلك له استهزاءً به، وإنما سفَّهوه وجهَّلوه بهذا الكلام"[3]. ذلك لأن كلامهم مبني على الاستعارة العنادية،[4] فظاهره المدح وباطنه السب والقدح، فكأنما أرادوا أن يقولوا: إنك لأنت السفيه الغوي، لكن ما جاء به النظم القرآني صوّر لنا مدى عنادهم وجحودهم واستهزائهم في تلقي دعوة الحق؛ ليحصل التأسّي ولتؤخذ العبرة، فتكون الموعظة للرسول ﷺ ولأتباعه من بعده من قصص الأنبياء مع أقوامهم[5].

ومن شواهد مجيء الجملة التعليلية بعد الاستفهام الإنكاري التكذيبي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة النمل) فقد جاء قوله تعالى: (لقد وعدنا...) تعليلا للإنكار التكذيبي الذي حكاه القرآن عن قول

(١) المحرر الوجيز: ٢٠١/٣.

(٢) أنوار التنزيل: ١٤٥/٣، وينظر أيضا البحر المحيط: ١٩٧/٦، ١٩٨.

(٣) جامع البيان: ٤٥٢/١٥، وينظر الكشاف: ٤١٩/٢، وينظر تفسير ابن كثير: ٣٤٣/٤.

(٤) الاستعارة العنادية: هي التي لا يمكن اجتماع طرفيها في شيء واحد لتعاندهما. (ينظر المطول: ٣٦٥)

(٥) ومن الشواهد أيضا: سورة يونس: ١٧، سورة هود: ٩٢.

الكافرين: (أإذا كنا ترابا وآباؤنا أإنا لمخرجون) وهذا ما أكده البقاعي (ت٨٨٥هـ) في تفسيره إذ يقول: "وقال الذين كفروا...مستفهمين استفهام المستبعد المنكر: {أإذا كنا تراباً وآباؤنا} وكرروا الاستفهام؛ إشارة إلى تناهي الاستبعاد والجحود، وعد ما استبعدوه محالاً، فقالوا: {أئنا} أي نحن وآباؤنا الذين طال العهد بهم، وتمكن البلى فيهم {لمخرجون} أي من الحالة التي صرنا إليها من الموت والبلى إلى ما كنا عليه قبل ذلك من الحياة والقوة، ثم أقاموا الدليل في زعمهم على ذلك فقالوا تعليلاً لاستبعادهم: {لقد وعدنا}"(١)، فزعَمَ الكفارُ المنكرون للبعث الجاحدون للحساب أن هذه المقالة مما قد وُعِدَ بها من كان قبلُ على ألسنة الرسل والأنبياء، فعدوها من أكاذيب الأولين، معللين بها إنكارهم وتكذيبهم بالبعث والجزاء، وهذا ما أكده أبو السعود (ت٩٨٢هـ) قائلا: "والجملة استئناف مسوق لتقرير الإنكار وتصديرها بالقسم لمزيد التأكيد، وقوله تعالى {إِنْ هذا إِلاَّ أساطير الأولين} تقرير إثر تقرير"(٢)، وتلك حجتهم الداحضة الواهية، التي تتمثل في ترداد أقوال الأولين في النفي والتكذيب دون أدنى برهان أو دليل، وعند وقوع البعث سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(٣).

ومن الخصائص السياقية أيضا للجملة التعليلية وقوعها بعد تمنٍ؛ قصدا إلى إظهار مدى الرغبة في حصول المتمنى، وإبراز مدى الحسرة على فوات أوانه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ (سورة الفرقان) فجملة (لقد أضلني عن الذكر) تعليل يزيد من معنى التنديم، ويظهر أسباب التحسير على فوات المتمنى،

(١) نظم الدرر: ١٤/٢٠٥، ٢٠٦.

(٢) إرشاد العقل السليم: ٦/٢٩٨، وينظر التحرير والتنوير: ١٨/١٠٧.

(٣) ومن الشواهد أيضا: سورة المؤمنون: ٨٢، ٨٣، سورة السجدة: ١٠.

فهي: "تعليلٌ لتمنيه المذكورِ، وتوضيحٌ لتعللُّه، وتصديُره باللامِ القسميَّةِ للُمبالغةِ في بيانِ خطئِه وإظهارِ ندمهِ وحسرتِه"(١).

ومن خصائصها السياقية أيضا وقوعها عقب (كلا) الحرف الذي يفيد الردع والزجر(٢)؛ تأكيدا لمضمون الجواب وتقريرا لمحتوى الكلام، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾﴾ (سورة المدثر) فقد جاءت جملة (إنه كان لآياتنا عنيدا) تعليلا للردع المفهوم من (كلا)، ونصّ على هذا الزمخشري (ت٥٣٨هـ) بقوله: "إِنَّهُ كانَ لِآياتِنا عَنِيداً تعليل للردع على وجه الاستئناف، كأن قائلا قال: لم لا يزاد؟ فقيل: إنه عاند آيات المنعم، وكفر بذلك نعمته، والكافر لا يستحق المزيد"(٣)، فلما كان الجواب بـ (كلا) رادعا لطمعه وزاجرا لرجائه وقاطعا لأمله، احتاج أن يؤكد الكلام بذكر العلة الموجبة لذلك الجواب، فجاءت جملة التعليل مشتملة على ما يوجب هذا الاستحقاق، حيث إن هذا الكافر زاد في العناد وأنكر المعاد، ليتعظ بذلك كل متعظ، ويعتبر كل معتبر(٤).

ومن الخصائص السياقية للجملة التعليلية وقوعها عقب الأخبار العجيبة والعظيمة لتأكيد مضمون الجملة ولتقرير معناها، فمن وقوعها بعد الأخبار العجيبة لنفي التعجب ولتقرير المعنى قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/٢١٤، ومن الشواهد أيضا: سورة القصص: ٧٩، سورة الحاقة: ٢٨.

(٢) ينظر الجنى الداني: ٥٧٧.

(٣) الكشاف: ٤/٦٤٨.

(٤) ومن الشواهد أيضا: سورة المؤمنون: ١٠٠، سورة الشعراء: ٦٢، سورة المعارج: ٣٩.

(سورة آل عمران) فأكد البقاعي (ت٨٨٥هـ) على معنى التعليل في الآية بقوله: "{قال يا مريم أنّى} أي من أين {لك هذا} قال الحرالي: كلمة أنى تشعر باستغرابه وجود ذلك الرزق من وجوه مختلفة: من جهة الزمان أنه ليس زمانه، ومن جهة المكان أنه ليس مكانه، ومن جهة الكيف ووصوله إليها أنه ليس حاله، وفي ذكر الضمير في قوله: {قالت هو من عند الله} إيذان بنظرها إلى مجموع حقيقة ذلك الرزق لا إلى أعيانه... ولما لم يكن من معهود ما أظهرته حكمته سبحانه مما يجريه على معالجات أيدي الخلق قالت {من عند الله} ذي الجلال والإكرام... ولما أخبرت بخرقه سبحانه وتعالى لها العادة علّلت ذلك بقولها مؤكدة تنبيهاً على أن ذلك ليس في قدرة ملوك الدنيا: {إن الله} أي الذي له الإحاطة الكلية..."(١).

وعليه فإن جملة (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تعليل للإخبار الذي سبق في قوله تعالى: قالت هو عند الله، وهذا التعليل يفيد تذكير سيدنا زكريا عليه السلام بما يعلمه ويقر به من أن الله ﷻ يرزق من يشاء بغير حساب؛ ليكون هذا التذكير سبيلا لنفي التعجب وإزالة الدهشة المفهومين من الاستفهام، والجواب في قوله تعالى: أنى لك هذا قالت هو من عند الله، فيأتي التعليل ليقرر الجواب ويزيل الاستغراب، ولذلك – وفي تلك الحال زمانا ومكانا– انتبه سيدنا زكريا عليه السلام لحال نفسه من رغبته في حصول الولد له، وقد تعطلت أسبابه عنده وعند زوجه، فدعا ربه عز وجل بذلك، فقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة آل عمران).

(١) نظم الدرر: ٣٦١/٤.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (سورة هود) **يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): "ومعنى قوله تعالى: إنه ليس من أهلك، نفي أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالا لقول نوح -عليه السلام-: إن ابني من أهلِي، ولكنه إعلام بأن قرابة الدين بالنسبة لأهلِ الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائع في الاستعمال... وتأكيد الخبر لتحقيقه لغرابته، وجملة إنَّه عمل غير صالح تعليل لمضمون جملة إنه ليس من أهلك، فـ (إنَّ) فيه لمجرد الاهتمام"[(١)].**

فإن إخبار المولى ﷻ في قوله تعالى: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك) أمر يستدعي استغرابا وعجبا من سيدنا نوح عليه السلام؛ خاصة وقد تقدم النص على تلك البنوة في قوله تعالى: (ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي) فلذا جاءت الجملة التعليلية لتزيل الاستعجاب، وترفع الاستغراب، وتبين حقيقة بنوة الأنبياء، وأن الأمر ليس مقصورا فيها على بنوة الصلب كعامة الناس، فأتى قوله تعالى: إنه عمل غير صالح، تعليلا فيه تقرير للنفي الذي سبق في قوله: إنه ليس من أهلك، وفي الإخبار عنه بالمصدر: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح، للمبالغة في معنى الذم، فكأنه تجسد من أعمال غير صالحة، فلم يعد يبقى فيه عنصر من عناصر الذات، على أن الآية قرئت بالفعل أيضا: إنه عَمِلَ غيرَ صالحٍ،[(٢)] على معنى أنه باشر أعمال السوء ووقعت منه، فخرج بذلك من أن يكون من أهل النجاة[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢/٨٥، ٨٦.

(٢) قراءة الكسائي ويعقوب، ينظر الكنز في القراءات العشر: ٢/٥٠٧.

(٣) ومن الشواهد أيضا غير ما ذكر: سورة فصلت: ٣٩، سورة الذاريات: ١٦، سورة الواقعة: ٤٥، سورة الانشقاق: ١٣، ١٤.

ثانيا: الخصائص الذاتية للجملة التعليلية.

من خلال استقراء الجملة التعليلية في النظم القرآني في السياقات المذكورة سابقا وجدتها تحمل خصائص لها في ذاتها، تدل عليها، وترشد إليها، وتعرف بها، وهي كونها خبرية غير إنشائية، وفي الغالب اسمية غير فعلية، ومفصولة غير موصولة، ومؤكَّدة، ومعلومة مقررة، فهذه خصائصها على جهة الإجمال، وأما على جهة التفصيل فهي كالآتي:

(١) كونها خبرية غير إنشائية.

من الثابت المقرر أن الجملة الخبرية هي ما تحتمل الصدق والكذب لذاتها، وأن الجملة الإنشائية بعكسها، ذلك لأن للجملة الخبرية نسبة واقعية خارجية نستطيع من خلالها الحكم بصدق الخبر أو بكذبه، وأما الإنشائية فابتداء كلام جديد لا توجد له نسبة واقعية تحكم عليه بالصدق أو بالكذب[١]، بهذا كانت طبيعة الجملة الخبرية هي المنسجمة مع التعليل، والأنسب في التدليل؛ لأنها تقوية للكلام وتثبيت له بذكر شواهده وبراهينه، التي يؤكدها الواقع، ويحكم بصدقها الخارج، وكل الشواهد التي سبق ذكرها والوقوف معها تدل على ذلك وتشهد به.

وقد ترد الجملة التعليلية في النظم القرآني على صورة الجملة الإنشائية في الظاهر لكنها في حقيقة الأمر في معنى الجملة الخبرية، فهي إنشائية لفظا خبرية معنى، والعبرة بالمعاني، وإنما جاءت على صورة الإنشاء لنكتة بلاغية ولمعنى

(١) هذا ما عليه أكثر أهل العلم، ينظر الإيضاح مع البغية: ٢٨/١، وفيه: "ووجه الحصر أن الكلام إما خبر أو إنشاء؛ لأنه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج، الأول الخبر، والثاني الإنشاء"، وينظر الطراز: ١٦٢/٣، وإن كان هناك من يقسم الكلام إلى غير الخبر والإنشاء، كما يرى أن الفرق بين الخبر والإنشاء غير ما ذكر، ينظر عروس الأفراح: ١٧٢/١، وما بعدها.

مقصود يناسب السياق والمقام؛ زيادة في معنى التحقيق والتثبيت، كما سيأتي في التحليل.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ (سورة مريم) نصّ البقاعي (ت٨٨٥هـ) على أن جملة (هل تعلم له سميا) جملة تعليلية، وبيّن سر مجيئها على صورة الاستفهام بقوله: "{فاعبده} بالمراقبة الدائمة على ما ينبغي له من مثلك {واصطبر} أي اصبر صبراً عظيماً بغاية جهدك على كل ما ينبغي الاصطبار عليه كذلك {لعبادته} أي لأجلها، فإنها لا تكون إلا عن مجاهدة شديدة؛ ثم علّل ذلك بقوله: {هل تعلم له سمياً} أي متصفاً بوصف من أوصافه اتصافاً حقيقياً، أو مسمى باسمه، العلَمِ الواقعِ موقعَ لأنه لا مماثل له حتى ولا في مجرد الاسم، وإيراده بصورة الاستفهام كالدعوى بدليلها"[1].

فالجملة التعليلية جاءت على صورة الاستفهام الإنكاري؛ لتكون بمثابة الدعوى بدليلها كما ذكر البقاعي، وذلك لأن الاستفهام الإنكاري يفيد تقرير النفي وتأكيده، فمآل التأويل في الجملة على معنى الخبرية، والمعنى: لا مسامي لله تعالى، ولا تعلم له مماثلا في اسمه (الله)، والحال أنهم قد اعترفوا أن خالق السماوات والأرض هو الله، ولم يسموا أحدا من آلهتهم المزعومة بهذا الاسم، فوجب أن يفرد بالعبادة من انفرد بهذا الاسم، وبذاك يتم كون الجملة تعليلا؛ إذ صاحَبَ الدعوى الدليلُ والحجة[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ (سورة الملك) فأكد ابن عاشور

(١) نظم الدرر: ٢٣٣/١٢.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٤٣/١٦.

(ت١٣٩٣هـ) على أن جملة (ألا يعلم من خلق) في موقع التعليل بقوله: "وجملة ألا يعلم من خلق استئناف بياني ناشئ عن قوله: إنه عليم بذات الصدور، بأن يسأل سائل منهم: كيف يعلم ذات الصدور، والمعروف أن ما في نفس المرء لا يعلمه غير نفسه؟ فأجيبوا بإنكار انتفاء علمه تعالى بما في الصدور، فإنه خالق أصحاب تلك الصدور"(١).

وعليه فإن قوله تعالى: (إنه عليم بذات الصدور) تعليل لقوله: (وأسروا قولكم أو اجهروا به) وقوله: (ألا يعلم من خلق) إنكار واستبعاد بإثبات العلم ونفي ضده، والحال أنه اللطيف الخبير، ولذا يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ): "ليسْتَوِ عندكم إسراركم وإجهاركم في علم الله بهما، ثم إنه علله بـ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، أي بضمائرها قبل أن تترجم الألسنة عنها، فكيف لا يعلم ما تكلم به. ثم أنكر ألا يحيط علما بالمضمر والمسر والمجهر مَنْ خَلَقَ الأشياء، وحاله أنه اللطيف الخبير، المتوصل علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطن"(٢).

فالاستفهام من قبيل الإنكار، وفيه معنى التقرير أيضا؛ لأن "الإنكار إذا دخل على النفي كان لنفي النفي، وهو إثبات...فمن قال: إنها للتقرير أراد تقرير ما دخله النفي...ومن قال: إنها للإنكار أراد إنكار الجملة المنفية"(٣)، فإنكار نفي العلم في الآية نفي لذلك النفي، فما هو إلا وسيلة لتقرير إثبات العلم على أبلغ وجه؛ لأن فيه ردا على المخاطب الذي يتوهم عدم العلم، فعُلم من ذلك أن الاستفهام الإنكاري والاستفهام التقريري يتداخلان، وهو ما نص عليه الزمخشري (ت٥٣٨هـ) من أن همزة الإنكار إذا دخلت على النفي رجع إلى معنى التقرير(٤)، وجاء في حاشية

(١) ينظر التحرير والتنوير: ٣٠/٢٩.
(٢) الكشاف: ٥٧٩/٤.
(٣) عروس الأفراح: ٢٩٧/٢.
(٤) ينظر الكشاف: ٤٦٥/٣.

الدسوقي (ت١٢٣٠هـ) في قوله تعالى: (أليس الله بكاف عبده) أن الهمزة فيه للتقرير كما تصح أن يقال: إنها للإنكار...وكلاهما حسن، فعلم أن التقرير ليس يجب أن يكون بما دخلت عليه الهمزة، بل بما يعرفه المخاطب من الكلام الذي دخلت عليه الهمزة من إثبات[١].

فالاستفهام التقريري في معنى الخبر،[٢] والاستفهام الإنكاري في معنى الخبر أيضا[٣]، والعبرة بالمعاني، وإنما جاء الخبر في صورة الإنشاء ليكون التعليل ألزم للخصم وأقوى في الاحتجاج؛ ثقة بأن المقرَّر لا يسعه إلا الإقرار بالأمر ويذعن بحقيقته، وينطق بالحق على نفسه من عند نفسه؛ لأن البديهة تقضي بذلك وتحكم به.

(٢) كونها اسمية في الغالب.

غالبا ما تأتي الجملة التعليلية اسمية لتتناسب مع معنى التعليل، فإن المقصود من مجيء التعليل تأنيس النفوس بتقرير المعاني، والجملة الاسمية معناها يدل على الثبوت والدوام[٤]، وهذا المعنى هو الأليق بمعنى التعليل، ولذلك فأكثر شواهد النظم القرآني في مجيء الجملة تعليلية جملة الاسمية، والفعلية قليلة جدا، وما جاء منها على الفعلية فالأكثر أن يكون فعلها فعلا ماضيا ليدل على تحقق الوقوع[٥] الذي يقرب من معنى الاسمية، مشتملة على عدد من المؤكدات، وبهذا تتناسب وحال التعليل، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَإِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ

(١) حاشية الدسوقي: ٢/٢٩٧.

(٢) ينظر عروس الأفراح: ٢/٣٠٧، وينظر التحرير والتنوير: ١/٦٦٥.

(٣) ينظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٤/١٠٦.

(٤) ينظر مفتاح العلوم: ٢٠٧، وينظر الطراز: ٢/١٤٣.

(٥) ينظر الإيضاح مع البغية: ١/١٢٢.

﴿ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة النمل) فإن جملة (لقد وعدنا...) تعليل للإنكار المستفاد من الاستفهام في قول الكافرين: أإذا كنا ترابا...، كأنها تدليل على زعمهم الكاذب، ولتقوية هذا الزعم الكاذب جاءت هذه الجملة مشتملة على عدد من المؤكدات؛ لتظهر أن ما استبعدوه من بعث وجزاء هو في حد المحال الذي لا يكون، وبهذا يصور لنا النظم القرآني مدى عناد القوم وجحدهم وإصرارهم على رضاهم بالكفر ورد الإيمان.

وقد تأتي مصدرة بفعل مضارع خال من التوكيد لمناسبة السياق الوارد فيه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ (سورة القصص) فإن جملة (لا نبتغي الجاهلين) تعليل للحالة الواقعة من المؤمنين من المجانبة والمتاركة والمسالمة المفهومة مما سبق من قوله تعالى: (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه...) وهذا ما نص عليه البقاعي (ت٨٨٥هـ) بقوله: "ولما جرت العادة بأن مثل هذا يكسر اللاغي، ويرد الباغي، أشاروا لهم إلى قبح حالهم، رداً على ضلالهم، بقولهم تعليلاً لما مضى من مقالهم: {لا نبتغي} أي لا نكلف أنفسنا أن نطلب {الجاهلين} أي نريد شيئاً من أحوالهم أو أقوالهم، أو غير ذلك من خلالهم"[(١)]، وهو ما أكده ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) في تفسيره[(٢)]، ولعل السر في مجيئها على صيغة المضارع كان لتصوير حال المؤمنين في إعراضهم عن الجاهلين، لاستحضار ذلك المشهد العجيب في رفض مسايرة جهل الجاهلين أو الاتصاف ببعض أوصافهم؛ لتكون تلك الصورة ماثلة للمقتدين في كل زمان ومكان؛ لكسر كل لاغ ولرد كل باغ، ولعلها أيضا جاءت

(١) نظم الدرر: ٣١٧/١٤.

(٢) ينظر التحرير والتنوير: ١٤٦/٢٠.

خالية من التوكيد لتلمح إلى أن شأنهم هذا مما ينبغي ألا يشك فيه شاك أو يتردد فيه متردد، بل مجرد الإخبار به يكفي لإظهار علة متاركة صفات الجاهلين.

(٣) كونها مفصولة غير موصولة.

معلوم أن للواو بين حروف العطف منزلة رفيعة، إذ بتوخي ذكرها وحذفها بين الجمل يحصل كثير من الفوائد، وتظهر وفرة من النكات، ويُعرف فضلُ كلام على كلام، ومعلوم أن مبنى باب الفصل والوصل على ترك الواو وذكرها، وهذا الباب كما يقول عنه عبد القاهر (ت٤٧١): "لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحدٌ، إلا كَمَل لسائر معاني البلاغة"(١).

والجملة التعليلية من خصائصها أنها تأتي مفصولة عن الكلام المعلَّل قبلها؛ لأنها إما مؤكِّدة للكلام السابق أو مبينة له، فبهذا يكون بين الجمل كمال اتصال يوجب الفصل بينهما، وإما أن تكون واقعة وقوع الجواب من السؤال، فبهذا يكون بين الجمل شبه كمال الاتصال، فكما لا يعطف الجواب على السؤال؛ لما بينهما من روابط وشدة اتصال، فلا تعطف الجملة التعليلية على ما قبلها؛ لوجود الرابط المعنوي الذي يغني عن الرابط اللفظي.

ومن هنا ذكر الزركشي (ت٧٩٤هـ) قوله: "وغالب التعليل في القرآن فهو على تقدير جواب سؤال اقتضته الجملة الأولى، وهو سؤال عن العلة"(٢).

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة فصلت) فقد فُصلت جملة (إنه على كل شيء قدير) عن جملة (إن الذي

(١) دلائل الإعجاز: ٢٢٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٩١/٣.

أحياها لمحي الموتى) لأنها تعليل مؤكد لمعنى الإخبار، فبين الجملتين كمال اتصال يوجب الفصل بينهما.

وانظر أيضا إلى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾ (سورة يوسف) تجد جملة (إن النفس لأمارة بالسوء) تعليلا لجملة (وما أبرئ نفسي) وقد استشهد البلاغيون[1] بهذا الآية في الفصل بين الجمل لشبه كمال الاتصال حيث تكون الجملة الثانية جوابا عن سؤال اقتضته الجملة الأولى، وهذا يقتضي الفصل بين الجملتين كما يفصل ما بين السؤال والجواب؛ لوجود الرابط المعنوي، وجعلوها من باب الجواب عن سبب خاص، فذكر الخطيب (ت٧٣٩هـ) قائلا: "كأنه قيل: هل النفس أمارة بالسوء؟ فقيل: إن النفس لأمارة بالسوء، وهذا الضرب يقتضي تأكيد الحكم"[2].

وإنما جاء التعليل مؤكدا في مثل هذا السياق ليقرر أن حقيقة النفس وطبيعتها أن تكون كذلك، أو على حد قول البقاعي (ت٨٨٥هـ): "علل عدم التبرئة بقوله – مؤكداً لما لأكثر الناس من الإنكار، أو لأن اتباعهم لأهويتهم فعل من ينكر فعل الأمارة –: {إن النفس} أي هذا النوع {لأمارة} أي شديدة الأمر{بالسوء}"[3]، كما جاءت صيغة المبالغة في (أمارة) للدلالة على تمكن هذه الصفة في النفس، وملازمتها لها.

هذا وقد أشار عبد القاهر (ت٤٧١هـ) إلى تلك الخصيصة، وإلى ما تصنعه (إنّ) إذا جاءت في مثل هذا السياق قائلا: "واعلمْ أنَّ مِنْ شأنِ "إنَّ" إذا جاءتْ على هذا الوجهِ، أَن تُغْني غَناء "الفاءِ" العاطِفةِ مثلاً، وأنْ تُفيدَ من رَبْط الجملةِ بما قبلَها

(١) ينظر دلائل الإعجاز: ٣١٧، وينظر مفتاح العلوم: ١٧٣، وينظر الطراز: ١٠٨/٢.
(٢) الإيضاح مع البغية: ٦٨/٢-٧٠.
(٣) نظم الدرر: ١٢٩/١٠.

أمراً عجيباً. فأنتَ تَرى الكلامَ بها مستأنفًا غير مستأنف، ومقطوعًا موصولاً معاً"[١]، فهو يقصد بالوصل هاهنا الوصل المعنوي الذي يستغنى فيه عن الوصل اللفظي الذي يكون باستجلاب حرف العطف (الواو).

(٤) كونها مؤكِّدة.

التعليل تقرير للمعاني وتثبيت للأخبار وبيان لسببية التوجيهات والأحكام، وكل هذا يستدعي الاهتمام بالجملة المعلِّلة، ومن جملة الاهتمام أن تأتي مشتملة على عدد من المؤكدات، حتى ولو كانت مقررة ثابتة، كما سيأتي في الخصيصة الآتية؛ لأن التوكيد يناسب التعليل، وتلك المناسبة تكون واضحة جدا إذا كانت الجملة التعليلية بمثابة جواب لسؤال تثيره الجملة التي قبلها، فتأتي مشتملة على التوكيد استحسانا كما يؤكد الجواب، وإن لم تكن الجملة التعليلية بمثابة الجواب، وكانت تقريرا لجملة كلام سابق، ففي الغالب -أيضا- تأتي مشتملة على التوكيد لمراعاة أمرٍ ما يُفهم من السياق، وأكثر ما يكون التوكيد بـ "إن".

والتوكيد: "تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره، وفائدته إزالة الشكوك وإماطة الشبهات عما أنت بصدده"[٢]، والمؤكدات كثيرة، فمنها: إنّ، وأنّ، والجملة الاسمية، ولام الابتداء، والقسم، وأحرف التنبيه، ونونا التوكيد الثقيلة والخفيفة، والتكرار اللفظي، وأما الشرطية التفصيلية، وضمير الفصل، وكان، وقد، والسين وسوف، والحروف الزوائد مثل (من) الاستغراقية، والباء في خبر المنفي[٣]، وقد جاءت الجملة التعليلية في النظم القرآني مشتملة على كثير من هذه المؤكدات، ويظهر هذا من خلال الشواهد التي عرض لها البحث.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٧٣.

(٢) الطراز: ٢/٩٤.

(٣) ينظر عروس الأفراح: ١/٢١٩، وما بعدها.

وهذا ما يمكن أن يفسر لنا سر مجيء بعض الجمل مؤكدة في خطاب من لا يمكن تقدير الشك في حقه فضلا عن الإنكار، كخطاب الله ﷻ لرسوله ﷺ من مثل قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (سورة النمل) فقد جاء التوكيد مراعاة لحال الكلام نفسه؛ لأن الجملة سيقت مساق التعليل الذي يستلزم التوكيد.

وهذا الذي ذكرته في الآية خلاف لما ذهب إليه العلامة ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) من أن معنى (إنّ) في الآية لمجرد الاهتمام ولا تفيد توكيدا، إذ يقول: "وجاءت جملة: إنك على الحق المبين، مجيء التعليل للأمر بالتوكل على اللَّه إشعارا بأنه على الحق، فلا يترقب من توكُّلُه على الحَكَم العدْلِ إلا أن يكون حُكْمُه في تأييده ونفعه. وشأن (إنَّ) إذا جاءت في مقام التعليل أن تكون بمعنى الفاء، فلا تفيد تأكيدا، ولكنها للاهتمام"(١).

نعم، إنّ (إنّ) تقوم مقام الفاء في الربط بين الجملتين، لكن الربط بها يفيد معنى لا يحصل إذا قامت الفاء مقامها، فهي تغني غناء الفاء في الربط، وتزيد عليها في أمور أخرى، وهذا ما أكده عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) في دلائله عندما عرض لبيت بشار (ت١٦٨هـ): (من بحر الخفيف)

بكرا صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير(٢)

فأورد قائلا: "قال له خلفٌ: لو قلتَ يا أبا معاذ مكان "إن ذاك النجاح في التبكير، بكرا فالنجاح في التبكير، كان أحسن. فقال بشارٌ: إنما بنيتُها أعرابية وحشية، فقلتُ: إن ذاك النجاح في التبكير، كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلتُ: "بكرا فالنجاح، كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذاك الكلام، ولا يدخل في معنى

(١) التحرير والتنوير: ٣٣/٢٠.

(٢) ديوان بشار: ٢٠٣/٣.

القصيدة. قال: فقام خلف فقبّل بين عينيه"، فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار، إلا للطف المعنى في ذلك وخفائه؟"[1].

فهذا واضح جدا في جهة المغايرة بين الربط بالفاء والربط بـ (إنّ)، فليس هما سواء، وإن قامت إحداهما مقام الأخرى في الربط بين الجمل، فـ (إنّ) تفيد مع الربط التوكيد والتقرير الذي أوجبه الاهتمام، وتجعل الكلام مفصولا موصولا معا، كما سبق ذكره.

(٥) كونها معلومة مقررة.

ومن خصائص الجملة التعليلية أن مضمونها من الحقائق الثابتة والمعاني الراسخة التي ينبغي ألا ينازع فيها، والتعليل بها واسع وحكم عام، ليس مقيدا بخصوص ما تقدمها فقط، بل هي معلومة مقررة في كل الأحوال، ذلك لأنها كالبرهان والدليل، فلا بد من أن تكون حقيقة ثابتة المضمون من قبلُ لدى المتلقي، حتى يصح بها التعليل، ويتم بها الاحتجاج، ولذلك فإن الغرض من الإخبار بالجملة التعليلية في النظم القرآني لا يكون أبدا من باب الفائدة؛ لأن الأصل أن تكون الفائدة حاصلة قبل الإخبار، بل يكون من باب لازم الفائدة، بجانب أغراض أخرى تأتي من باب مستتبعات التراكيب كما سيأتي تفصيله – بإذن الله تعالى– في المبحث الثاني.

وهذه الخصيصة نص عليها أبو حيان (ت٧٤٥هـ) في تفسيره عند توجيه الفتح والكسر في همزة (إن) في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٣٧﴾ (سورة البقرة) قائلا: "وقرأ الجمهور إِنَّهُ: بكسر الهمزة، وقرأ نوفل بن أبي عقرب: أنه بفتح الهمزة، ووجهُه أَنّه فَتَحَ على التعليل، التقدير: لأنه، فالمفتوحة مع ما بعدها فضلة؛ إذ هي في تقدِير مفرد ثابت واقع مفروغ من

(١) دلائل الإعجاز: ٢٧٢، ٢٧٣.

ثبوته لا يمكن فيه نزاع منازع، وأما الكسر فهي جملة ثابتة تامة أخرجت مخرج الإخبار المستقل الثابت ومع ذلك فلها ربط معنوي بما قبلها"[1].

وكذلك أيضا ذكرها ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) عندما عرض لتفسير قول الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ (سورة لقمان) قائلا عن جملة (إن الله لطيف خبير) "وإنما لم نجعلها تعلِيلا لأن مقام تعليم لقمان ابنه يقتضي أن الابن جاهل بهذه الحقائق، وشرط التَّعليل أن يكون مسلما معلوما قبل العلم بالمعَلَّلِ ليصح الاستدلال به"[2].

ولهذا فإن كل جملة أفادت حكما جديدا لا يعلمه المخاطب من قبلُ، فلا تقع موقع التعليل، وما جاء ظاهره أن الجملة جاءت تعليلا، وقد أفادت معنى جديدا لم يكن معروفا من قبل، فيكون الأمر فيها على سبيل التنزيل – فيما أحسب– لكون مضمون الجملة في غاية الظهور وشدة الوضوح، مما تقر به الفطر السليمة والنفوس الزكية عند الإعلام به، فيكفي مجرد الإخبار به ليحصل الإذعان، وذلك كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥﴾ (سورة الأحزاب) فإن جملة (هو أقسط عند الله) تعليل للأمر في قوله تعالى: (ادعوهم لآبائهم) ومعلوم أن هذه الجملة قد أفادت حكما جديدا لم يكن من قبل، فالغرض من الخبر هو الفائدة، ولكن لما كان هذا الحكم مما يتناغم مع الفطر السليمة؛ لأن القسط فيه أوضح والعدل فيه أبين، صار في حكم الحقائق الثابتة والأمور المقررة، ولذا يقول أبو السعود (ت٩٨٢هـ):

(١) البحر المحيط: ٢٦٩/١.

(٢) نظم الدرر: ١٦٤/٢١.

"وقولُه تعالى {هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ} تعليلٌ لـه، والضَّميرُ لمصدرِ ادعُوا كما في قولِه تعالى: اعدلوا هُوَ أَقْرَبُ للتقوى، وأقسطُ أفعلُ قُصد به الزيادةَ مطلقاً من القسطِ بمعنى العدلِ أي الدُّعاء لآبائِهم بالغٌ في العدلِ والصِّدقِ في حُكمِ الله تعالى وقضائِه"[1]، وبهذا نكون قد انتهينا من ذكر خصائص الجملة التعليلية السياقية أو الذاتية على حسب استقراء النظم القرآني، ويبقى في المبحث الثاني ذكر أهم الأغراض البلاغية للجملة التعليلية.

(١) إرشاد العقل السليم: ٩١/٧.

المبحث الثاني: أغراض الجملة التعليلية.

تعددت أغراض الجملة التعليلية الواردة في النظم القرآني الكريم تبعا لتعدد السياقات والمقامات التي وردت فيها الجملة التعليلية؛ لأن التعليل ورد عقب أوامر منوعة، ونواه متعددة، وأخبار مختلفة، وتوجيهات كثيرة؛ جاء تثبيتا لتلك الأمور كلها، وتأكيدا عليها، وحثا على الالتزام بها، وإسراعا إلى العمل بمقتضاها، ولأغراض كثيرة جدا، لا يمكنني بداية أن أدعي الإحاطة بها كلها في النظم القرآني الكريم، ولكنني وقفت – فيما أحسب– على كثير منها مستنبطا تلك الأغراض من خلال تتبع السياقات واختلاف أحوال الكلام التي وردت فيها، مستأنسا في ذلك كله بأقوال أهل العلم ممن عرضوا لتلك الآيات بالتفسير والتأويل، وفيما يلي عرض لأهم تلك الأغراض:

١- التأكيد والتقرير.

هذا غرض عام لكل التعليلات الواردة في القرآن الكريم، فيأتي التعليل ليؤكد حقيقة الحكم ويقرر واقع الأمر، فلا يُبْقِي للنفس أي تشوف أو فرط تطلع، ويزيل منها كل لبس أو اعتراض، ويدفع عنها كل شبهة أو وهم، فيأتي التعليل مصاحبا للحكم أو التوجيه حتى ولو كان الحكم أو التوجيه أصلا عاما لا يختلف فيه؛ لأن النفوس تأنس بالأحكام المعللة؛ فيأتي التعليل ليقرر حقيقة الحكم، ويبين علة التوجيه، فيكون بمثابة البرهان المصاحب للقضية، والدليل المقترن بالدعوى؛ فيدفع المخاطب إلى القبول والاطمئنان، ولا يجد المتلقي أمامه إلا الإقرار والإذعان.

وهذا ما قرره الزركشي (ت٧٩٤هـ) إذ يقول: "التعليل: بأن يذكر الشيء معلَّلا فإنه أبلغ من ذكره بلا علة لوجهين: أحدهما: أن العلة المنصوصة قاضية بعموم المعلول...، الثاني: أن النفوس تنبعث إلى الأحكام المعللة بخلاف غيرها"[(١)].

(١) البرهان في علوم القرآن: ٣/٩١.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾ (سورة البقرة) فجملة (إنه لكم عدو مبين) جملة تعليلية للنهي الذي سبقها في قوله تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وجملة (إنما يأمركم...) تعليل للإخبار في قوله تعالى: (إنه لكم عدو مبين) فهذه الجملة الأخيرة معلِّلة لما قبلها معلَّلة بما بعدها، وهذا ما ذكره البقاعي (ت٨٨٥هـ) بقوله: "ثم علل ذلك بقوله: {إنه لكم عدو} بتكبره على أبيكم ومكره به وسؤاله الإنظار لإضلالكم {مبين} أي ظاهر العداوة فلا تتبعوا العدو في منابذة الولي. ثم علل إبانة عداوته والنهي عن اتباعه بقوله: {إنما} فحصر لينتفي عنه الأمر بشيء فيه رشد..."(١).

فجاء التعليل ليقرر حقيقة الشيطان ويؤكد عداوته للإنسان، كل إنسان، ولذا جاء النداء في أول الآية عاما للناس كل الناس، وعداوة الشيطان للإنسان حقيقة مقررة في كل الشرائع، ومركوزة في جميع الطبائع، فجاء بتلك الحقيقة تعليلا بعد النهي لمزيد من التقرير والتأكيد، ومسارعة إلى اجتناب المنهي عنه والعمل بمقتضى ذلك.

كما جاءت جملة (إنما يأمركم...) بيانا وتعليلا للإخبار في قوله تعالى: إنه لكم عدو مبين، فهي تعليل للتعليل؛ لتقرير معنى العداوة وتأكيد حقيقتها؛ تحريضا على عدم متابعة خطوات الشيطان، ولذا جاءت هذه الجملة بأسلوب الحصر (إنما يأمركم) لبيان أن وساوسه لا تخرج عن تلك الأمور المستقبحة شرعا وعقلا.

وقد ذهب العكبري (ت٦١٦هـ) إلى أن كسر همزة (إن) في قوله تعالى: (إنه لكم عدو مبين) أبلغ من فتحها؛ لأن المعنى على كسر همزة (إن) الإعلام بحال

(١) نظم الدرر: ٣١٩/٢.

الشيطان، وأما مع فتح الهمزة فالمعنى على التعليل، والتقدير: لا تتبعوا خطوات الشيطان لأنه لكم عدو مبين، واتباعه ممنوع وإن لم يكن عدوا لنا[1].

وفي كلامه نظر من حيث إن معنى التعليل موجود مع كسر همزة (إن) كما هو موجود مع فتحها، ولذا قرر النحاة أن من المواضع التي يجوز فيها كسر همزة (إن) وفتحها إذا وقعت موقع التعليل[2]، غير أن التعليل مع فتح الهمزة يكون بالمفرد؛ لأن الجملة حينئذ في تأويل مفرد بتقدير لام العلة قبلها، والمعنى: ولا تتبعوا خطوات الشيطان لعداوته لكم، فالجملة مؤولة بمصدر في محل جر، وأما مع كسر همزة (إن) فيكون التعليل بالجملة؛ لأن الجملة حينئذ مستأنفة لا محل لها من الإعراب تعليلا للنهي أيضا، وكأن سائلا سأل: ما سبب النهي عن اتباع خطوات الشيطان؟ فكان الجواب: إنه لكم عدو مبين، ويبقى الفرق فقط في المعنى بين (إن، وأن) أن التعليل مع (أن) مفتوحة الهمزة تعليل بما هو في حكم المفرد، والكلام معها متعلق بما قبلها سيق للتعليل فقط، وأما التعليل مع (إن) مكسورة الهمزة فهو تعليل بالجملة، فهي مستقلة في الإخبار عن سابقتها، تفيد معنى مستقلا إضافة إلى معنى التعليل.

٢- **التثبيت والتأييد**.

من المعاني التي جاءت لها الجملة التعليلية في النظم القرآني الكريم معنى (التثبيت والتأييد) وذلك في سياق خطاب الأنبياء –عليهم السلام– وتوجيههم في طريقة الدعوة إلى الله ﷻ، فيجيء التعليل عقب هذه الخطابات وتلك التوجيهات ليربط على قلوبهم ويثبت أفئدتهم؛ وكذا كل من اتبع سبيلهم في تبليغ دعوة الحق إلى الخلق؛ لأن من يباشر تلكم المهمة العظيمة لا بد أن يناله كثير من الابتلاءات؛ فتأتي التعليلات عقب تلك التوجيهات في مثل هذه السياقات تثبيتا وتأييدا.

(١) ينظر التبيان في إعراب القرآن: ١/١٣٩.

(٢) ينظر أوضح المسالك: ١/٣٢٩، وشرح التصريح: ١/٣٠٥، وحاشية الصبان: ١/٤١١.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ (سورة طه) فقد جاءت جملة (إنك أنت الأعلى) تعليلا للنهي في قوله: (لا تخف) وهذا التعليل جاء تثبيتا لسيدنا موسى عليه السلام، ووعدا له بالنصر والغلبة والتأييد؛ ذاك لأن الموقف عصيب حين اجتمع سحرة فرعون فألقوا حبالهم وعصيهم، وخُيِّل لموسى – عليه السلام– ساعتئذ أنها حيات تسعى؛ لأن السحرة "أول ما اختطفوا بسحرهم بصر موسى وبصر فرعون، ثم أبصار الناس بعد، ثم ألقى كلّ رجل منهم ما في يده من العصي والحبال، فإذا هي حيات كأمثال الحبال، قد ملأت الوادي يركب بعضها بعضا"(١).

فاقتضى ذلك كله تأييدا وتثبيتا من الله ﷻ لموسى عليه السلام، فجاءت جملة (إنك أنت الأعلى) تعليلا وتثبيتا، مؤكدة بعدة مؤكدات لتناسب تلك الحال.

وهذه المؤكدات فصّلها البيضاوي (ت٦٨٥هـ) قائلا: "إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى، تعليل للنهي وتقرير لغلبته مؤكداً بالاستئناف، وحرف التحقيق، وتكرير الضمير، وتعريف الخبر، ولفظ العلو الدال على الغلبة الظاهرة، وصيغة التفضيل"(٢).

فالتأكيد بالاستئناف من باب التوكيد المعنوي، وحرف التحقيق يقصد به (إن)، وتكرير الضمير يقصد به تكرير ضمير الفصل (أنت) لمجيئه بعد كاف الخطاب في (إنك)، وتعريف الخبر بالألف واللام في (الأعلى)، ولفظ (العلو) يقصد به مادة الكلمة التي تفيد الغلبة الظاهرة، وصيغة التفضيل في (الأعلى) وهي على بابها، من حيث زعم فرعون وجنده أن سيكون لهم الغلبة والعلو، فجاءت صيغة التفضيل مناسبة لهذا الزعم؛ زيادة في الاطمئنان والتثبيت.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾ (سورة النمل) فإن قوله: (إنك على الحق المبين) تعليل للمداومة على الأمر في

(١) جامع البيان: ٣٣٦/١٨.

(٢) أنوار التنزيل: ٣٢/٤.

قوله تعالى: (فتوكل على الله) ولذلك يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) : "أمره بالتوكل على الله وقلة المبالاة بأعداء الدين، وعلل التوكل بأنه على الحق الأبلج الذي لا يتعلق به الشكّ والظنّ. وفيه بيان أنّ صاحب الحق حقيق بالوثوق بصنع الله وبنصرته، وأن مثله لا يخذل"(١).

فالغرض القائم من وراء جملة التعليل هو التثبيت والتأييد لرسول الله ﷺ حتى لا يحزنه تكذيب من كذب، ولا يشق عليه خلاف من خالف؛ ليمضي معتمدا على الله متوكلا عليه في تبليغ الدعوة كما أمره ربه، وهذا الغرض ورد كثيرا في غير موضع من النظم القرآني في سياق خطاب الرسل والأنبياء عليهم السلام، ومن نهج نهجهم في تبليغ دعوة الحق إلى الخلق(٢).

٣- التكريم والتشريف.

جاء هذا الغرض في سياق تعليل التوجيهات التي وجهت إلى رسول الله ﷺ تشريفا له وتكريما، وتبيانا لارتفاع منزلته وعلو قدره، وكذلك في سياق الإخبار عن أحوال تكريم الرسل والأنبياء عليهم السلام، وإنما جاء التعليل في مثل هذا السياق لبيان مزيد العناية بمقام النبوة والرسالة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (سورة التوبة) فجملة (إن صلاتك سكن لهم) يقول عنها عبد القاهر (ت٤٧١هـ) هي: "بيانٌ للمعنى في أمر النبي صلى ﷺ بالصلاة، أي بالدعاء لهم"(٣).

---

(١) الكشاف: ٣/٣٨٣.

(٢) من ذلك غير ما ذكر: سورة الأعراف آية: ١٢٨، وسورة يونس آية: ٦٥، وسورة القيامة آية: ١٧.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٢٣.

وهذا البيان وذاك التعليل يبين لنا فضل رسول الله ﷺ وشرف منزلته وتكريم المولى عز وجل له؛ لأن دعاءه ﷺ مستجاب، فهو سبب في حصول الطمأنينة لهم والرحمة بهم، فتسكن نفوسهم وتطمئن قلوبهم، والصلاة هاهنا بمعنى الدعاء[١]، وتعدية الفعل بـ (على) في قوله: وصل عليهم، يدل على أن تلك الصلاة تفيض عليهم بالخيرات وتعمهم بالبركات[٢]، وفي الإخبار عن الدعاء بأنه سكن، وهو في الحقيقة سبب في السكن، مجاز مرسل[٣] علاقته المسببية، حيث ذكر المسبب وأراد السبب؛ مبالغة في معنى التشريف والتكريم للنبي ﷺ بحصول السكن بمجرد الدعاء والاستغفار.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾ (سورة الصافات)

ففي الآيات الكريمات جاءت جملة (إنا كذلك نجزي المحسنين) تعليلا لما سبقها، وجاءت جملة (إنه من عبادنا المؤمنين) تعليلا للتعليل، وهذا ما ذكره أهل التفسير، ومنهم الزمخشري (ت٥٣٨) إذ يقول: "علل مجازاة نوح – عليه السلام – بتلك التكرمة السنية من تبقية ذكره، وتسليم العالمين عليه إلى آخر الدهر بأنه كان محسنا، ثم علل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا، ليريك جلالة محل الإيمان، وأنه القصارى من صفات المدح والتعظيم، ويرغبك في تحصيله والازدياد منه"[٤]. وهو أيضا ما ذكره البيضاوي (ت٦٨٥هـ) حين قال: "إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لما

(١) ينظر تأويل مشكل القرآن: ٢٥٥، وينظر معاني القرآن للنحاس: ٢٤٦/٣.

(٢) ينظر زهرة التفاسير: ٣٤٣٥/٧.

(٣) ينظر التحرير والتنوير: ٢٣/١١.

(٤) الكشاف: ٤٨/٤.

فُعِل بنوح من التكرمة بأنه مجازاة له على إحسانه، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ تعليل لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالة قدره وأصالة أمره"(١).

وعليه فإن قوله تعالى: (إنا كذلك نجزي المحسنين) جملة تعليلية أفادت معنى التشريف والتكريم لمن هم في مقام الإحسان؛ لأنها دلت على أن ما منحه الله ﷻ لسيدنا نوح –عليه السلام– من فضل وكرامة واستجابة دعاء كان مجازاة له على إحسانه، وفي هذا ترغيب في تلك الصفة وحث على تحصيلها، كما أن قوله تعالى: (إنه من عبادنا المؤمنين) تعليل للتعليل، يفيد معنى التكريم والتشريف لمن هم في مقام الإيمان؛ لأنه السبب في تحصيل الإحسان، فلن يبلغ العبد درجة الإحسان إلا بتحصيله أولا درجة الإيمان، وفي هذا تنويه بشأن الإيمان وترغيب في تحصيله والازدياد منه حتى يترقى العبد بعده إلى درجة الإحسان.

وهذا الغرض قائم بكثرة في النظم القرآني الكريم في سياق الحديث عن تكريم الله – عز وجل – الرسل والأنبياء، وعباده الصالحين، فنجد الجملة التعليلية تأتي عقب الإخبار عن كريم أحوالهم وصفاتهم لتبين لنا علة تلك الصفات والأحوال (٢).

٤- التوبيخ والتحقير.

جاءت الجملة التعليلية في النظم القرآني الكريم تحمل معنى التوبيخ والتحقير في سياق ذم الكبر والمتكبرين، والنعي على الكافرين المعاندين، جاءت تعلل الخطابات التي وجّهت إليهم، والأخبار التي تحدثت عنهم؛ لتؤكد قبح صفاتهم، وبشاعة أحوالهم، وذم أفعالهم، وسوء مصائرهم؛ عبرة وعظة لكل معتبر ومتعظ.

ومن ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن تكبر إبليس وإبائه السجود لآدم –عليه السلام– امتثالا لأمر ربه ﷻ، فكان من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ

(١) أنوار التنزيل: ١٣/٥.

(٢) من شواهد ذلك غير ما ذكر: سورة الحج آية: ٧٨، سورة ص آيات: ١٧، ٣٠، ٤٤، ٤٦.

لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ (سورة الأعراف) فجملة (فما يكون لك أن تتكبر فيها) تعليل للأمر قبلها في قوله: (فاهبط) لأن الفاء للتفريع، وجملة (إنك من الصاغرين) تعليل للأمر في قوله: (فاخرج) وهي دالة على معنى الحقارة والصغار الذي غفل عنه بسبب الاستكبار والإباء، وإعادة الأمر بالخروج بعد الأمر بالهبوط فيه تأكيد لمعنى التحقير والإهانة؛ لأن إبليس بتكبره صار غير مؤهل لمكان التشريف والتكريم، فأعاد الأمر له بالخروج بعد الأمر له بالهبوط.

وهذا ما أكده ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ) إذ يقول: "وقوله: فما يكون لك أن تتكبر فيها الفاء للسببية والتفريع؛ تعليلا للأمر بالهبوط... إنك من الصاغرين، يجوز أن تكون مستأنفة استئنافا بيانيًا؛ إذا كان المراد من الخبر الإخبار عن تكوين الصغار فيه بجعل الله تعالى إياه صاغرا حقيرا حَيثما حلّ، ففصلها عن التي قبلها للاستئناف، ويجوز أن تكون واقعة موقع التعليل...إذا كان المراد من الخبر إظهار ما فيه من الصغار والحقارة التي غفل عنها، فذهبت به الغفلة عنها إلى التكبر"(١).

ومن إفادة الجملة التعليلية معنى التوبيخ والتحقير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ (سورة التوبة) جاءت هذه الآية الكريمة في ضمن عدة توجيهات وُجهت إلى النبي ﷺ لتحديد كيفية معاملته المنافقين، ومن تلك التوجيهات أنه نُهي ﷺ عن أن يصلي على أحد من المنافقين، كما نُهي أن يشهد دفن أحدهم ويقف على قبره.

روى البخاري بسنده عن عمر بن الخطاب أنه قال: "لَمَّا مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، دُعِيَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَثَبْتُ إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتُصَلِّي عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ

(١) التحرير والتنوير: ٨/٤٤، ٤٥.

وَقَدْ قَالَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ أُعَدِّدُ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ» فَلَمَّا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ، قَالَ: «إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا» قَالَ: فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَلَمْ يَمْكُثْ إِلَّا يَسِيرًا، حَتَّى نَزَلَتِ الآيَتَانِ مِنْ بَرَاءَةٌ: {وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا} [التوبة: ٨٤] إِلَى قَوْلِهِ {وَهُمْ فَاسِقُونَ} [التوبة: ٨٤] قَالَ: فَعَجِبْتُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَئِذٍ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ"(١).

فجملة (إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم كافرون) جملة تعليلية بيّنت سببيّة النهي، والغرض منها التوبيخ والتحقير لهم، "فجمع- سبحانه- بين وصفهم بالكفر ووصفهم بالفسق زيادة في تقبيح أمرهم، وتحقير شأنهم فهم لم يكتفوا بالكفر وحده، وإنما أضافوا إليه الفسق، وهو الخروج عن كل قول طيب، وخلق حسن، وفعل كريم"(٢).

فهم بتلك الأوصاف الحقيرة والصفات الذميمة ليسوا أهلا لتشريف رسول الله ﷺ لهم بالصلاة عليهم والوقوف على قبورهم، وفي هذا أيضا إكرام لمقام رسول الله ﷺ وصونا لمنزلته أن يشهد مشاهد هؤلاء الكافرين الفاسقين، ومما يشبه ما نحن فيه مواضع كثيرة في النظم القرآني الكريم(٣).

(١) صحيح البخاري: ٩٧/٢، باب ما يكره من الصلاة على المنافقين، والاستغفار للمشركين، حديث رقم (١٣٦٦).

(٢) التفسير الوسيط: ٣٧١/٦.

(٣) منها: سورة الأعراف آية: ٦٤، سورة الفرقان آية: ٤٤، سورة الزخرف آية: ٥٤، سورة المجادلة آية: ١٥.

٥- الوعيد والترهيب.

يأتي هذا المعنى في الجملة التعليلية في سياق خطاب الذين لا يذعنون لقولة الحق، ولا يصدقون بأحوال الآخرة، فتأتي جملة التعليل بعد خطابهم لتبين لهم جزاء المخالف، ومآل المعاند؛ حتى يرتدع من يرتدع، وينزجر من ينزجر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ (سورة الحج) ففي سياق تذكير الناس بأهوال يوم القيامة وما يكون فيه من اضطراب شديد وخوف عظيم جاء النداء لجميع الناس كل الناس، ثم جاء بعد النداء والتنبيه وبعد استرعاء القلوب والعقول جاء الأمر بالتقوى: اتقوا ربكم، التقوى التي تستلزم أن يتجنب المرء كل ما يستدعي عقوبة أو يوجب إثما؛ خوفا وحذرا من زلزلة هذا اليوم العظيم، ثم مجيء وصف الربوبية هاهنا مما يناسب نداء (الناس) لأنه ﷻ رب كل الناس، ففيه إشارة إلى استحقاقه ﷻ أن يتقيه العبد؛ لأنه خالقه ورازقه ومربيه.

في هذا السياق جاءت جملة (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) تعليلا لما سبق من نداء وأمر وتوجيه، ولذا يقرر أبو السعود (ت٩٨٢هـ) قائلا: " وقولُه تعالى {إِنَّ زَلْزَلَةَ الساعة شَيء عَظِيمٌ} تعليلٌ لموجبِ الأمرِ بذكرِ بعضِ عقوباتِه الهائلةِ فإنَّ ملاحظةَ عِظَمِها وهولِها وفظاعةِ ما هيَ من مباديهِ ومقدماتِه من الأحوالِ والأهوالِ التي لا مَلْجأَ منها سوى التَّدرعِ بلباسِ التَّقوى مما يوجبُ مزيدَ الاعتناءِ بملابستِه وملازمتِه لا محالةَ"[1]، فواضح أن جملة التعليل هنا جاءت لغرض الوعيد والإنذار، ساعد على إبراز هذا الغرض نظمها التي وردت فيه، من تأكيد بـ (إن) وإضافة المصدر (زلزلة) إلى الساعة، وهو من إضافة المصدر إلى فاعله على معنى المجاز العقلي وعلاقته الزمانية؛ فهي في الحقيقة زمان للزلزلة، لكن النظم القرآني جعلها

(١) إرشاد العقل السليم: ٦/٩١.

هي التي تزلزل الأشياء لهول ما يحصل في زمانها، ثم مجيء التنكير في كلمة (شيء) وكأنه شيء لا يدرك كنهه ولا يعرف حقيقة أمره إلا بالمعاينة والمشاهدة، فالنكرة هاهنا للتهويل والتفخيم؛ ثم زاد من هذا المعنى أن جاء وصف النكرة بقوله (عظيم)، ثم ما جاء بعد ذلك من تفصيل وبيان (يوم تذهل...) يزيد في معنى الترهيب والوعيد.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ (سورة غافر) فجملة (إن الذين يستكبرون...) تعليل للأمر السابق يفيد الوعيد والتحذير لمن ترك الدعاء واستكبر عن العبادة، ولذا يقول الرازي (ت٦٠٦هـ): "ذكر الوعيد الشديد على ترك الدعاء"(١)، وكذا نص القرطبي (ت٦٧١هـ) بقوله: "وهذا وعيد شديد"(٢)، وفي هذا حث للعباد على وجوب التضرع لله وخصه بالعبادة؛ لأن الوعيد الشديد والتحذير العظيم لا يكون إلا في ترك الواجب اللازم، والشواهد على ذلك الغرض كثيرة في النظم القرآني الكريم(٣).

٦- **الوعد والترغيب**.

في سياق حث المؤمنين على امتثال التوجيهات التي وجهت إليهم من أوامر ونواه وإرشادات، وكذا بعد الأخبار العظيمة توكيدا لها، جاءت الجملة التعليلية بعد هذه التوجيهات وتلك الأخبار لتفيد معنى الترغيب والتبشير؛ تحفيزا لهم على الرجوع والإنابة، وإلهابا وتهييجا على السمع والطاعة، ذلك لأن التعليل يجعل النفوس تأنس بالأحكام، فيكون أدعى لقبول النصح، وإبقاء الأثر، والتأثر بالوعظ.

(١) مفاتيح الغيب: ٥٢٨/٢٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٤٢٥/٦.

(٣) منها: سورة المائدة آية: ٧٢، سورة الأنبياء آية: ١١٠، سورة الفرقان آية: ٦٥، سورة فصلت آية: ٤٠.

ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿* قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة الزمر) فجاءت جملة (إن الله يغفر الذنوب جميعا) تعليلا للنهي في قوله تعالى: (لا تقنطوا من رحمة الله) يفيد الترغيب في التوبة، والتبشير بالعفو والمغفرة، وجملة (إنه هو الغفور الرحيم) تعليل للإخبار في قوله تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعا) فهي تعليل للتعليل.

وقد تضافرت عدة مؤكدات في الجملة التعليلية لتقرير المعنى ولتأكيد الوعد بالعفو والمغفرة لمن تاب وأناب، فنجد في الجملة الأولى (إن الله يغفر الذنوب جميعا) الإتيان بحرف التوكيد (إنّ)، والحال المؤكدة (جميعا) مع تقديم الاسم (الله) على الخبر الفعلي (يغفر الذنوب) مما يفيد الاختصاص والقصر، ثم تأتي الجملة الثانية (إنه هو الغفور الرحيم) متصدرة بحرف التوكيد (إن) مع ضمير الفصل (هو) الذي يفيد الاختصاص والقصر، ثم يأتي التعريف في الخبر (الغفور) و (الرحيم) ليفيد معنى الكمال في الصفة، كما جاء كل وصف منهما على صيغة المبالغة (الغفور) على وزن فعول، و (الرحيم) على وزن فعِيل؛ قصدا إلى معنى المبالغة في الوصف، ثم في مجيء صفة الرحمة مع المغفرة؛ ليدل على أن مغفرة الذنوب من جملة رحمته سبحانه وتعالى بعباده.

ومن شواهد ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ (سورة المائدة) فجملة (إن الله يحب المحسنين) تعليل للأمر في قوله تعالى: (فاعف عنهم واصفح) وهذا التعليل جاء لغرض الترغيب والحث على العفو والصفح؛ والحمل على مكارم الأخلاق؛ لأن ذلك من

صفات المحسنين، والله يحب المحسنين، وكفى بذلك جزاء وفضلا وشرفا، ولهذا يقول البيضاوي (ت٦٨٥هـ): "{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المحسنين} تعليلٌ للأمر بالصفح، وحثٌّ عليه، وتنبيهٌ على أنَّ العفوَ عن الكافر الخائن إحسان؛ فضلا عن العفو عن غيره"(١).

وأيضا شواهد هذا المعنى متعددة في النظم القرآني(٢)، وما تقدم أحسبه كافيا في بيان الغرض.

٧- بيان سبب استحقاق الجزاء؛ ثوابا أو عقابا.

جاءت الجملة التعليلية كثيرا في سياق بيان سبب تنعيم المنعم، وتعذيب المعذب؛ لتؤكد الحكم، ولتقرر المعنى؛ لأن الحكم بجزاء معين ثوابا أو عقابا دائما ما تستشرف النفس لبيان علته، وتسأل عن سببه، فتأتي الجملة التعليلية لتلبي استشراف النفس، وتجيب عن سؤالها، فيتمكن المعنى في المتلقي فضل تمكن، ويترسخ الأثر في المخاطَب أشد ترسخ.

ومن الشواهد الواضحة في ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾ (سورة الذاريات) فواضح أن جملة (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) تعليل للإخبار عن نعيم المتقين (إن المتقين في جنات وعيون) وهذه الجملة التعليلية أفادت علّيّة استحقاقهم هذا النعيم، وأجابت عن استشراف النفس بسؤالها، لم كان هذا الجزاء؟ كما أنها تبين أيضا أثر وصفهم بالإحسان (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) تبين أثره في إلحاق النعيم بهم، يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣): "وجملة: إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، تعليل لجملة: إن المتقين في جنات وعيون، أي كان ذلك جزاء لهم عن

(١) أنوار التنزيل: ١١٩/٢.

(٢) منها: سورة البقرة آية: ٣٧، سورة المائدة آية: ٤٨، سورة المجادلة آية: ١.

إحسانهم"[1]، فإحسانهم كان له أثره في نعيمهم؛ فضلا من الله ورحمة، حتى يسارع المتلقي إلى التحلي بهذا الوصف، والتخلق بهذا الخلق.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (سورة الأنبياء) فقد جاءت هذه الآية الكريمة عقب ما ذكره المولى ﷻ من نصرٍ لأنبيائه وتأييدٍ لأوليائه من كيد أعدائه، فكانت جملة: إنهم كانوا يسارعون في الخيرات...، تعليلا لبيان سبب استحقاقهم أن يكونوا أهلا للنصر والتأييد، وأن ذلك هو مسارعتهم في الخيرات، ومبادرتهم إلى فعل الطاعات استوجب لهم بفضل من الله ﷻ هذا الثواب، وهذا مما يهون على النفس التكليفات، فتسارع إلى امتثال الأوامر واجتناب المنهيات[2].

وفي المقابل يقول ربنا عز وجل: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (سورة الواقعة) فجملة (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين) تعليل للإخبار عن تعذيب أصحاب الشمال، وهذه الجملة التعليلية أفادت بيان سببيّة استحقاقهم العذاب؛ عدلا منه – سبحانه وتعالى– وقِسْطا، وبينت أن سبب عذابهم هو ما كانوا فيه في الدنيا من ترف وسرف، يقول الألوسي (ت١٢٧٠هـ): "وقوله تعالى: إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُتْرَفِينَ، تعليل لابتلائهم بما ذكر من العذاب، وسلك هذا المسلك في تعليل الابتداء بالعذاب اهتماما بدفع توهم الظلم في التعذيب...والمعنى أنهم عذبوا لأنهم كانوا قبل ما ذكر من العذاب في الدنيا متبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره – عز وجل – وارتكاب نواهيه

(١) التحرير والتنوير: ٣٤٨/٢٦.

(٢) ولمزيد من الشواهد ينظر من: سورة يوسف: ٢٤، سورة الصافات: ٨١، ١١١، سورة ص: ٣٠.

سبحانه"[1]، فسيقت جملة التعليل لبيان سببية استحقاق العذاب؛ لدفع توهم الظلم في التعذيب.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ (سورة العنكبوت) فقوله تعالى: (إن أهلها كانوا ظالمين) جملة تعليلية الغرض منها بيان سبب استحقاق هذه القرية الإهلاك؛ لأنهم أصروا على الظلم وتمادوا في ارتكاب الفواحش والآثام، ولا شك أن العقوبات التي تأتي معللة بأسبابها لا تدع للشك فيها مجالا[2].

٨- بيان سبب التسوية بين الأمر وضده.

جاءت الجملة التعليلية في النظم القرآني الكريم في سياق بيان سبب التسوية بين ضدين؛ لأن التسوية بين الضدين مما يستدعي استغرابا، ويثير سؤالا؛ كيف يكون الفعل وترك الفعل سواء بسواء؟ وكيف يكون المآل فيهما واحدا؟! بل كيف لا يتفاوت الحال بتفاوت فعل المخاطب؟! عندئذ تستشرف النفس لما يزيل عنها هذا الاستغراب، ويأتي لها بالجواب، فتذعن لذلك غاية الإذعان، ولا أقدر على هذا من بيان السبب، ومجيء العلة، فتأتي الجملة التعليلية لتكشف عن سر التسوية بين الضدين، ولتجلي عن عدم الفرق بين الفعل والترك.

ومن أوضح الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (سورة التوبة) فقد سوى النظم الكريم بين إنفاق المنافقين حالة كونهم مظهرين الطواعية أو حالة كونهم

(١) روح المعاني: ١٤/١٤٤.

(٢) ولمزيد من الشواهد ينظر من: سورة الأعراف: ٦٤، سورة فصلت: ٢٥، سورة الأحقاف: ١٨، سورة الحاقة: ٣٣.

مظهرين الكراهية في عدم القبول، ووقوع الفعل من الفاعل لا يكون إلا على أحد هذين الوجهين، وبهذا يكون النظم قد استغرق جميع أحوالهم في عدم القبول، وهذا الأمر مما يستدعي في النفس سؤالا، ما سبب ذلك؟ فتأتي الجملة التعليلية كأنها الجواب لما أثير في النفس، إنكم كنتم قوما فاسقين.

والأمر في الآية (أنفقوا) إنشاء في معنى الخبر،[1] قد خرج إلى معنى التسوية كما ذكر البلاغيون[2]، وجاءت جملة التعليل مؤكدة بأكثر من مؤكد؛ لتبين السبب وتقرر حقيقة الأمر، ومجيء لفظ (كنتم) يدل على عراقتهم في الكفر والفسوق، وهذا مما ذكره البقاعي (ت٨٨٥هـ) إذ يقول: "{قل أنفقوا} أي أوجدوا الإنفاق لكل ما يسمى إنفاقاً {طوعاً أو كرهاً} أي مظهرين الطواعية أو مظهرين الكراهية؛ ولما كان الإعراض عنهم إنما سببه كفرهم لا إنفاقهم، لم يربط الجواب بالفاء، بل قال: {لن يتقبل منكم} أي يقع تقبل لشيء يأتي من قبلكم أصلاً من أحد له أن يتقبل كائناً من كان، ولذلك بناه للمفعول؛ لأن قلوبكم كارهة ليست لها نية صالحة في الإنفاق ولا في غيره، فانقسام إنفاقكم إلى طوع وكره إنما هو باعتبار الظاهر، وكأنه عبر بالتفعل إشارة إلى قبوله منهم ظاهراً؛ ولما كان غير مقبول باطناً على حال من الأحوال علّل بقوله: {إنكم كنتم} أي جبلة وطبعاً {قوماً فاسقين} أي عريقين في الفسق بالغين أنهى غاياته"[3]، فعدم تفاوت الحال بين إنفاقهم طائعين وإنفاقهم كارهين سببه وعلته هو كونهم منافقين عريقين في الكفر والفسوق.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾ (سورة الإسراء) فجملة (إن الذين أتوا العلم...) تعليل للتسوية بين الإيمان وعدمه، وفي هذا تحقير للمخاطبين وعدم

(١) ينظر الكشاف: ٢/٢٧٩.

(٢) ينظر مفتاح العلوم: ٣٢٦، وينظر الإيضاح مع البغية: ٢/٤٧.

(٣) نظم الدرر: ٨/٤٩٨.

الاكتراث بشأنهم؛ لأن إيمانهم وكفرهم سواء، ففي إيمان الذين أوتوا العلم غنية عن إيمانهم، فقد آمن به من هو خير منهم مقاما، وأفضل منهم أحلاما، وهذا أيضا مما يحمل معنى التسلية للنبي ﷺ، ولذا يقول ابن عاشور (ت١٣٩٣هـ): "آمنوا به أو لا تؤمنوا للتسوية بين إيمانهم وعدمه عند اللَّه تعالى، فالأمر فِي قوله: آمنوا للتسوية... وهو كناية عن الإعراض عنهم واحتقارهم وقلة المبالاة بهم، ويندمج فيه مع ذلك تسلية الرسول صلَّى الله عليه وسلم"(١).

إذن تأتي الجملة التعليلية في سياق النظم القرآني عقب التسوية بين الضدين؛ لتبين علّيّة هذه التسوية، ولتجيب عن تساؤلات النفوس وتطلعاتها الحاصلة بسبب تلك التسوية، فتتقرر المعاني، وتحصل الفوائد، وفي القرآن الكريم شواهد على ذلك غير ما ذكر(٢).

هذا وقد جاءت الجملة التعليلية لأغراض أخرى كثيرة فوق ما ذكر، سأكتفي بالإشارة إليها مخافة الإطالة، منها: التيئيس كقوله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ (سورة التوبة)، فقوله تعالى: (قد نبأنا الله من أخباركم) تعليل لنفي التصديق لهم في قوله (لن نؤمن لكم) يحمل معنى التيئيس وقطع الرجاء في ذلك.

ومنها التهكم والسخرية كقوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ (سورة الدخان)، فقوله تعالى: (إنك أنت العزيز الكريم) تعليل يحمل معنى التهكم والسخرية في الأمر المقصود منه الإهانة في قوله: (ذق).

---

(١) التحرير والتنوير: ٢٣٣/١٥.

(٢) منها في: سورة البقرة آية: ٧، سورة إبراهيم آية: ٢١، سورة الطور آية: ١٦.

ومنها التعجيب كقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ (سورة النمل)، فقوله تعالى: (إنهم أناس يتطهرون) تعليل يفيد التعجيب من حال القوم الذين يخرجون قوما لأجل طهارتهم.

ومنها التنبيه على الخطأ والضلال كقوله تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (سورة العنكبوت)، فقوله تعالى: (إن الذين تعبدون...) تعليل للتنبيه على الخطأ والضلال في عبادة الأوثان.

ومنها الإلهاب والتهييج كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ (سورة الأحزاب)، فقوله تعالى: (إن الله كان عليما حكيما) تعليل يفيد الإلهاب والتهييج لملازمة التقوى المأمور بها في مطلع الآية، كذلك قوله تعالى: (إن الله كان بما تعملون خبيرا) تعليل يفيد الإلهاب والتهييج لملازمة الأمر في قوله (واتبع ما يوحى إليك).

ومنها التنفير والتقبيح كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ (سورة النساء)، فقوله تعالى: (إنه كان فاحشة وساء سبيلا) تعليل للنهي في قوله (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) لإفادة معنى التنفير والتقبيح.

ومنها الاحتياط وأخذ الحذر كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (سورة الكهف)، فقوله تعالى: (إنهم إن يظهروا عليكم...) تعليل لما تقدم من طلب في قوله: (وليتلطف ولا يشعرن بكم أحدا) لأخذ الحيطة والحذر.

ومنها التسلية والتسرية للنبي ﷺ كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ (سورة يس)، فجملة (إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) تعليل للنهي في قوله: (فلا يحزنك قولهم) لإفادة التسرية عن النبي صلى الله عليه وسلم، والتسلية له ﷺ.

ومنها نفي الاستغراب بعد الأخبار العجيبة كقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (سورة آل عمران)، فقوله تعالى: (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) تعليل للإخبار في قوله (هو من عند الله) لخروجه عن مألوف البشر، فأفاد هذا الإخبار نفي أي عجب ودفع أي استغراب، فهذه أهم الأغراض التي فُهِمت من خلال السياقات وتعدد المقامات، وأخيرا كما قلت بداية يمكنني القول نهاية أن استيفاء كل أغراض الجملة التعليلية في القرآن كله مما لا يمكن ادعاؤه، والإحاطة به، ولكن ما ذكر من أغراض هو -فيما أحسب- أكثر الأغراض ورودا في النظم القرآني.

الخاتمة

وبعد هذا التطواف في تلك الدراسة يمكن أن نخلص منها إلى عدة نتائج، أهمها:

(١) الجملة التعليلية في النظم القرآني الكريم لها دور محوري في تقرير الأحكام وتبيان علة التوجيهات؛ لأنها بمثابة البرهان المقترن بالقضية، والدليل الملازم للدعوى، فتندفع النفوس إلى القبول والإذعان؛ لأنسها بوجود الدليل والبرهان.

(٢) الخصائص الذاتية للجملة التعليلية تتمثل في كونها خبرية غير إنشائية، وإن جاءت على صورة الإنشائية فهي خبرية في المعنى إنشائية في اللفظ.

(٣) وأيضا كونها مؤكَّدة؛ لأن الغرض الرئيس منها هو التقرير والتثبيت.

(٤) وأيضا كونها اسمية غير فعلية في الأغلب الأعم؛ لأن الاسم يدل على الثبوت والدوام، فيتناسب مع معنى التعليل في كونه للاستدلال، والاستدلال لا يكون إلا بالثابت المقرر، وما جاء منها بالفعلية فالغالب الفعل الماضي؛ لكونه يفيد تحقق الوقوع، ويقل ورود الفعل المضارع في التعليل إلا إذا قصد استحضار الصورة وتمثل الموقف.

(٥) وأيضا كونها مفصولة غير موصولة؛ لأنها مرتبطة بما قبلها برابط معنوي يغني عن الرابط اللفظي، على حد كمال الاتصال، أو شبه كمال الاتصال.

(٦) للجملة التعليلية في النظم القرآني خصائص وسمات سياقية، فعادة ما تأتي عقب أمر، أو نهي، أو استفهام، أو تمنٍ، أو جواب يفيد الردع والزجر، أو أخبار عظيمة وعجيبة؛ تأتي بعد هذه الأمور لتبين علة الطلب والتوجيه، وسببية الحكم والإرشاد، ولتؤكد معنى الردع، ولتزيل موطن العجب والاستغراب.

(٧) الغرض الرئيس للجملة التعليلية في النظم القرآني يدور حول التقرير والتأكيد، والتثبيت والتأييد.

(٨) وبجانب الغرض الرئيس تنوعت أغراض الجملة التعليلية في النظم القرآني تبعا لاختلاف المقامات وتغير السياقات الواردة فيها، فنجدها أفادت: التكريم والتشريف، والتوبيخ والتحقير، والوعد والترغيب، والوعيد والترهيب، والإلهاب والتهييج، والتكهم والسخرية، ونفي العجب والاستغراب، وغيرها من الأغراض.

هذا ويوصي البحث أن تقوم دراسة بلاغية مستقلة تكشف عن قيمة التعليل بالمفرد وما هو في حكم المفرد في النظم القرآني؛ لتتعاضد مع هذه الدراسة في بيان قيمة أسلوب التعليل بوجه عام في النظم القرآني، تكشف عن أسراره، وتظهر النكات الحاصلة من ورائه؛ لأن شواهد التعليل، سواء كان تعليلا بالمفرد أو ما هو في حكم المفرد فضلا عن الجملة، كثيرة جدا في القرآن الكريم، هذا والله أعلى وأعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت المصادر والمراجع

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة العامة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

(٢) أثر العلل النحوية في المسائل الخلافية في النحو العربي، للباحث: صدام ممدوح الرفوع، رسالة دكتوراه، قسم اللغويات، قسم اللغة العربية، كلية الدراسات العليا، جامعة مؤته، ٢٠١٨م.

(٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود العمادي (ت٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني اليمني (ت١٢٥٠هـ)، تحقيق: أحمد عناية، الناشر: دار الكتاب العربي، ط أولى، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

(٥) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، المدني، القاهرة، ١٤١٢هـ،١٩٩١م.

(٦) أصول النحو العربي للدكتور محمد خير الحلواني، الناشر الأطلسي، ط ثانية، بدون تاريخ.

(٧) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي (ت٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط أولى، ١٤١٨هـ.

(٨) الإيضاح للخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) مطبوع مع البغية للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت١٣٩١هـ)، الآداب، ط السابعة عشرة ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

(٩) الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار النفائس، بيروت، ط خامسة، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

(١٠) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام (ت٧٦١هـ)، تحقيق: محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر، بدون تاريخ.

(١١) البحر المحيط في التفسير لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ط ١٤٢٠هـ.

(١٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية، ط أولى، ١٣٧٦هـ، ١٩٥٧م.

(١٣) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
(١٤) التبيان في إعراب القرآن للعكبري (ت٦١٦هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
(١٥) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الإصبع المصري (ت٦٥٤هـ)، تحقيق: حفني محمد شرف، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، بدون تاريخ.
(١٦) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.
(١٧) التعريفات للشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، تحقيق: مجموعة من الباحثين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣.
(١٨) تعليل الأحكام لمحمد مصطفى شلبي، رسالة نوقشت عام١٩٤٥ في كلية الشريعة جامعة الأزهر، وطبعت في مطبعة الأزهر،١٩٤٧م.
(١٩) تفسير ابن كثير (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، النشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٩هـ.
(٢٠) تفسير الجلالين لجلال الدين المحلي (ت٨٦٤هـ) وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، الناشر: دار الحديث، القاهرة، ط أولى، بدون تاريخ.
(٢١) التفسير الوسيط لمحمد سيد طنطاوي (ت١٤٣١هـ)، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة، الفجالة، القاهرة، ط أولى، ١٩٩٧-١٩٩٨م.
(٢٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري (ت٣١٠هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، ط أولى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م.
(٢٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، إبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ثانية، ١٣٨٤هـ، ١٩٦٤م.
(٢٤) الجنى الداني للمرادي (ت٧٤٩هـ) تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

(٢٥) حاشية الدسوقي لمحمد بن عرفة الدسوقي (ت١٢٣٠هـ) (ضمن شروح التلخيص) الناشر: دار الإرشاد الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٦) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي= عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي لشهاب الدين أحمد المصري (ت١٠٦٩هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

(٢٧) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك للصبان (ت١٢٠٦هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

(٢٨) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود شاكر، ط المدني، القاهرة، ١٤١٠هـ.

(٢٩) ديوان بشار بن برد (ت١٦٨هـ) لناشره ومقدمه وشارحه ومكمله: محمد الطاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ)، علق عليه، ووقف على طبعه: محمد رفعت فتح الله، محمد شوقي أمين، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، بدون تاريخ.

(٣٠) ديوان عمر بن أبي ربيعة (ت٩٣هـ) قدم له ووضع هوامشه وفهارسه: فايز محمد، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، ط ثانية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.

(٣١) روح المعاني للألوسي (ت١٢٧٠هـ) تحقيق: علي عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤١٥هـ.

(٣٢) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) لابن قدامة المقدسي (ت٦٢٠هـ)، الناشر: مؤسسة الريان للطباعة والنشر، ط ثانية، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(٣٣) زهرة التفاسير لأبي زهرة (ت١٣٩٤هـ)، الناشر: دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

(٣٤) شرح التصريح على التوضيح لخالد الأزهري (ت٩٠٥هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط أولى، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

(٣٥) صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه لمحمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، ط أولى، ١٤٢٢هـ.

(٣٦) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي (ت٧٤٥هـ)، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ط أولى، ١٤٢٣هـ.

(٣٧) العدة في أصول الفقه لابن الفراء (ت٤٥٨هـ) تحقيق: أحمد بن علي المباركي، بدون ناشر، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.

(٣٨) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح للسبكي (ت٧٧٣هـ) (ضمن شروح التلخيص) الناشر: دار الإرشاد الإسلامي، بيروت، بدون تاريخ.

(٣٩) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) دار الكتاب العربي، ط ثالثة، ١٤٠٧هـ.

(٤٠) الكنز في القراءات العشر لتاج الدين الواسطي (ت٧٤١هـ)، تحقيق: خالد المشهداني، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط أولى، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

(٤١) لسان العرب لابن منظور (ت ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، ط ثالثة، ١٤١٤هـ.

(٤٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية (ت٥٤٢هـ) تحقيق: عبد السلام عبد الشافعي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط أولى، ١٤٢٢هـ.

(٤٣) المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٢هـ)، ناشر: محرم أفندي، ط المكتبة الأزهرية للتراث، بدون تاريخ.

(٤٤) معاني القرآن للنحاس (ت٣٣٨هـ)، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط أولى، ١٤٠٩هـ.

(٤٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت٣١١هـ) تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، ط أولى، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

(٤٦) معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، الناشر: مكتبة ودار الهلال، بدون تاريخ.

(٤٧) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم للسيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق: محمد عبادة إبراهيم، الناشر: مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، ط أولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

(٤٨) مفاتيح الغيب، أو التفسير الكبير للرازي (ت٦٠٦هـ) دار إحياء التراث العربي، ط ثالثة١٤٢٠هـ.

(٤٩) مفتاح العلوم للسكاكي (ت٦٢٦هـ) ضبطه، وكتب هوامشه، وعلق عليه: نعيم زرزور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ثانية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

(٥٠) مقاييس اللغة لابن فارس (ت ٣٩٥هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: دار الفكر، ١٩٧٩م.

(٥١) النحو العربي العلة النحوية نشأتها وتطورها للدكتور: مازن المبارك، الناشر: المكتبة الحديثة، ط أولى، ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م.

(٥٢) نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين للباحث: حسن خميس الملخ، رسالة دكتوراه، في اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٩٩٨م.

(٥٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي (ت٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٥٤) نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للرازي (ت٦٠٦هـ)، تحقيق: نصر الله حاجي أوغلي، الناشر: دار صادر، بيروت، ط أولى، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.

فهرس الموضوعات

اسم الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	٥٥٧
التمهيد: تأصيل لمفهوم التعليل عند النحاة والأصوليين والبلاغيين	٥٦٠
مفهوم التعليل	٥٦٠
التعليل عند النحاة والأصوليين	٥٦١
التعليل عند البلاغيين	٥٦٤
المبحث الأول: خصائص الجملة التعليلية	٥٦٧
الخصائص السياقية للجملة التعليلية	٥٦٧
الخصائص الذاتية للجملة التعليلية	٥٧٨
المبحث الثاني: أغراض الجملة التعليلية	٥٩٠
الخاتمة والتوصية	٦٠٩
ثبت المصادر والمراجع	٦١١
فهرس الموضوعات	٦١٦